الجزء الخامس

الجامعات والعولمة: اللاعبون الجدد

ترجمة: د. عبدالله الشبلي (١٢)

و

ترجمة: د. السيد البهواشي (١٣، ١٤)

الفصل الثانى عشر

الجامعات الأسترالية كمؤسسات تجارية جامعية: لاعبون متغيرون فى عصر العولمة(*)

إن كلمة العولمة قد تبعث ردود أفعال متباينة، فقد تخلق أبطالاً كأمثال جوس بوفىJose Bove والذى أزال نصف أحد مطاعم المكادونلز المبنية فى مدينته الأم فى جنوب فرنسا، وكردة فعل للآثار السلبية غير العادلة للعولمة يقوم آلاف المتظاهرون بمسيرات تجوب الشوارع ضد العولمة، فهم يناضلون ضد المنظمات العالمية مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية، كما أنهم يناضلون ضد أعضاء بعض التجمعات مثل المنتدى الاقتصادى العالمى ومجموعة الثمانية الكبار والذين يرون فيهم الرابحون من العولمة، حتى وإن كان عمل هذه المنظمات والتجمعات محاطًا بنوع من السرية إلا أن رسالتهم للعالم واضحة جدا، وهى أن العولمة فى صورة تحرير التجارة والاقتصاد هى مفتاح تقليل الفقر وزيادة الغنى.

سيتم مناقشة العولمة فى هذا الفصل فى صورتها الاقتصادية كأيديولوجية جديدة للتحرر، فهى تشجع التجارة الحرة والمنافسة وعدم التحكم وخصخصة الاقتصاد وفى الوقت نفسه إضعاف القطاع العام والاتحادات التجارية، بالإضافة إلى ذلك فهى تبغى إعطاء قوة أكبر للأعمال، بجعل الحدود الوطنية للدول مفتوحة للتدفق الحر لرأس المال والسلع والخدمات (ولكن حتى الآن على الأقل ليس البشر)، يمكن فهم العولمة بصفة عامة بمصطلحات الاقتصاد الرأسمالى العالمى مع أبعاده الثقافية والسياسية والاقتصادية، وهذه الأبعاد المذكورة مبنية طبقا لمبادىء الغرب واقتصاده، فالداعون للعولمة يحضون الدول على المضى قدما فى اقتصاد العولمة، وإلا فإنهم سوف يغوصون بعمق فى الفقر المدقع.

فى المقابل، فإن بعض الاقتصاديين الغربيين يعتقدون أن العولمة ما هى إلا دمار

(*) تأليف جان كارى Jan Currie

وهلاك، فعلى سبيل المثال أقر البروفسور جون كرى (John Cray) من كلية لندن للاقتصاد أن عهد العولمة انتهى، عندما قال:

«النظرة الكلية للعالم والتى تدعم إيمان السوق بالعولمة انصهرت تماما..... هذه النظرة التى تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، فدول العالم الغنية يتصرفون بناء على فرضية مفادها أن جميع الناس فى العالم يرغبون فى العيش مثلهم، ونتيجة لذلك فشلوا فى إدراك خليط المشاعر القاتلة والاستياء الحضارى الذى كان وراء هجمات الحادى عشر من سبتمبر على واشنطن ونيويورك.... فغاية الحضارة الكونية هى وصفة لصراعات غير منتهية، وجاء الوقت الآن للتخلى عن هذه الغاية» (The Economist, 29 Septemper 2001, p. 13).

أطلق كثير من الرسائل قصيرة عن العولمة، فالعديد من الكتاب رأوا نماذج من الاختلافات ظهرت فى استجابات الدول لقوى العولمة، وقد أظهر هل (Hall) وسوسكيس (Soskice) (٢٠٠١) بوضوح أن اقتصاديات الأسواق المختلفة لم تنتج السياسات نفسها كردة فعل للعولمة، فلقد حددوا ثلاثة نماذج من السياسات إلا أنهم تحدثوا بإسهاب عن نوعين، هما: اقتصاديات السوق الحرة واقتصاديات السوق التعاونية، ولقد استنتجوا أيضا أن المؤسسات فى كل من هذه الاقتصاديات تتعامل بصورة مختلفة مع التحديات نفسها.

ولقد أثرت العولمة بصورة مستفيضة على الجامعات كنتيجة لسياسات العولمة فى الاقتصاديات سالفة الذكر، فالدعم المنخفض للقطاع العام فى اقتصاديات السوق الحرة أدى إلى أن تدار الجامعات بصورة تجارية واضحة جدا، إلا أن عديداً من الجامعات فى أوروبا، والتى تعتمد اقتصاديات السوق التعاونية لم تتبع الطريقة الأنجلو أمريكية فى جعل الجامعات تدار بصورة تجارية، بالإضافة إلى احتفاظها بقدر معين من الديمقراطية الأكاديمية (Currie *et al.*, 2002)، فكما يبدو أن استجابة الدول للعولمة تعتمد على سياسات السوق الذى تتبعه وقوة اقتصادها ومدى قبول موطنيها لدفع ما يكفى من الضرائب؛ من أجل دعم مؤسسات القطاع العام.

سيناقش هذا الفصل أن العولمة ليست شيئًا جامداً، وأنها ليست ضرورية بالنسبة

للجامعات حتى تصل لمستويات راقية إداريا، وعلى العموم يوجد عديد من المخاطر، التى تحيط بعملية تبنى الدول والجامعات لبعض الممارسات العالمية المتعلقة بالعولمة، فهذا الفصل يبحث: هل الجامعات تواجه خطر خسران قيم مهمة، والتى ظلت تخدم هذه الجامعات لعقود، عندما نمت فى تحالف مع روح الشعب والتى وضعت بصعوبة أيضا مع القيم المتعلقة بالثقافة والمهنية.

خلال العقد الماضى حولت المنافسة من أجل التمويل والخصخصة الجامعات الأسترالية لتصبح أكثر نفعية، بجعلها تتجه اتجاهًا تجاريًا بتسويقها لمقرراتها بصورة شرهة فى أستراليا ودول العالم المختلفة.. سيسلط هذا الفصل الضوء على ثلاث جامعات أسترالية تنتمى إلى فترات زمنية مختلفة، تم إعادة ترتيبها لتكون أقرب للمؤسسات التجارية، هى: جامعة ملبورن التى أسست فى عام ١٨٥٥م، والتى تعتبر من الجامعات التقليدية والتى تعمل الآن على تأسيس جامعة ملبورن ٢١ الخاصة من خلال خلق تحالفات مع جامعات أسترالية وعالمية لجعل المقررات، التى تقدمها متوافرة ومتاحة على الإنترنت، والجامعة الثانية هى جامعة موناش، والتى أسست فى عام ١٩٦١م والتى أصبحت الآن جامعة متعددة الأفرع حيث لها ستة أحرام جامعية فى أستراليا، بالإضافة إلى حرم فى ماليزيا وآخر فى جنوب أفريقيا .. ولقد استثمرت فى قناة تلفزيونية فضائية، وفى عديد من التقنيات الحديثة التى تعمل على التوسع فى مجال التعلم المفتوح للطلاب فى أستراليا وفى جميع أنحاء العالم، والجامعة الثالثة هى جامعة مردوخ وهى جامعة صغيرة أسست فى عام ١٩٧٥م، وبدأت كجامعة بديلة، واليوم تبذل كل جهدها لتصبح أحد اللاعبين العالمين فى هذه البيئة التنافسية.

ملبورن وموناش ومردوخ

سيتم توضيح كيفية قيام الجامعات الأسترالية الثلاثة سالفة الذكر بالتحول إلى جامعات عالمية باستخدام تحليل سكلير (Sklair) للشركات التحولية التى حولت نفسها إلى شركات عالمية.. يقيس سكلير العولمة من خلال أربعة معايير، هى: الاستثمارات الأجنبية المباشرة (FDI)، أفضل الممارسات العالمية (WBP)، المواطنة المشتركة، والرؤية، كما أنه يؤكد أن تغيير الطبقة الرأسمالية الانتقالية، لايعتمد فقط

على السلطة التنفيذية للشركات التحولية، ولكنه يتضمن تغيير المهنيين فى هذه الشركات كالرؤساء مثلا. ومن خلال الأسطر القادمة سيتم التركيز على كيفية نضال رؤساء الجامعات الأسترالية سالفة الذكر ليصبحوا أحد اللاعبين الدوليين، وليضعوا جامعاتهم فى مواقع تنافسية فى سوق التعليم العالى العالمية خلال الفترة من ١٩٩٦ إلى ٢٠٠١، فخلال هذه الفترة قام هؤلاء النواب بإعادة بناء جامعاتهم فى ضوء الأعراف والممارسات للشركات العالمية، باستخدام اللغة التجارية لوصف رؤاهم لجامعاتهم.

قام عديد من رؤساء الجامعات الأسترالية باتباع نموذج CEOs، فلقد أصبحوا أقرب لوصف سيروسكيس لنموذج أمريكا الجديد لـ CEOs، والذى يمكن التعبير عنه بالقلنسوات الخضراء للإدارة المتحدة أو يمكن التعبير عنها كذلك بالفرسان المزهوين الذين يدخلون المدينة للقضاء على الفوضى والاضطراب، الذى خلفها خلفه نموذج CEO القديم، فلقد نشروا ما يمكن أن يسمى بعجرفة CEO الأمر الذى سهل لهم عملية اتخاذ وتحمل مسؤولية قرارات، عبر عنها سيروسكيس (٢٠٠١) بأنها لا تصب بالضرورة فى المصلحة العليا للمؤسسة، يصور ماكيثى فى :Bullying from Backyard to boardroom أن ثقافة أماكن العمل فى أستراليا متسامحة مع الزمالة، فهو يقول «الضغط الناتج من إعادة هيكلة الاقتصاد تتصادم مع الأعداد الكبيرة جدا من المدراء قليلى التدريب، ومع المؤسسات التى تتخذ من الزمالة تكتيكًا للتعامل مع المشكلات التى توجهها (Bachelard, 2001)، من جهة أخرى.. فإن بعض الأكاديميين يعتقدون أن ذلك يحصل فى المؤسسات الأكاديمية أيضا.

جميع رؤساء الجامعات المذكورة: ألن جيلبرت رئيس جامعة ملبورن وديفيد روبنسون رئيس جامعة موناش، وستيفن سكاورتس رئيس جامعة مردوخ يمكن وصفهم بالحالمين أو الطامحين، الذين يسعون للمصالح طويلة الأمد لجامعاتهم، فألن جيلبرت يمكن أن يوصف بالراديكالية؛ حيث إنه يفضل أن تصبح جامعة ذاتية التمويل فى هذه البيئة التى تتصف بقلة التحكم فيها (Light, 2002)، صاغ سكاورتس الخطاب الإعلامى نفسه من خلال مزاوجته بصورة واضحة بين الأيديولوجية الرأسمالية، ووصفه للأكاديميين كاجتماعيين من بقايا الستينيات من

القرن الماضى. ولقد قام مركز الدراسات الحرة المحسوب على الجناح اليمينى فى الفكر بدعوة كل من جلبرت وسكاورتس ليقوما بطرح رؤيتهم المستقبلية للجامعات الأسترالية. أما روبنسون، فقد واصل ما قام به سابقوه لتطوير جامعة موناش لتكون جامعة عالمية هى الأكبر فى أستراليا؛ حيث إنها تحوى ٤٧ ألف طالب فى ثمانية مقار لها، ما يقرب من ٦ , ٢٥٪ من هذا العدد من مختلف الجنسيات غير الجنسية الأسترالية فى عام ٢٠٠١، يتحدث هؤلاء ما يقرب من تسعين لغة، فلقد كانت رؤيته جعل موقع لجامعة موناش فى كل قارة من قارات العالم، وعلى أية حال فقد استقال قبل أن يحقق هدفه.

تصادم كل من جلبرت وسكاورتس باحتجاجات الطلاب والموظفين فى جامعاتهم، ففى جامعة ملبورن على سبيل المثال كان مكتب رئيس الجامعة موقع الاحتجاجات فى عام ٢٠٠١، وفى العام نفسه، قام خمسة عشر من رؤساء أقسام التخصصات الأدبية بمسيرة للتعبير عن امتعاضهم حول قلة الشفافية والمسؤولية فى مؤسستين من المؤسسات التجارية فى ملبورن، هما: جامعة ملبورن الخاصة وجامعة القرن الواحد والعشرين، وإذا ما استبعدنا هذه الاحتجاجات لم يكن جلبرت رئيس جامعة غير محبوب من قبل عديد من الموظفين؛ حيث إنه لم يكن يتدخل فى عمق الأعمال الأكاديمية لهذه المؤسسات فلم يقم بإعادة هيكلة الجامعة، بل فقط بالتغير بصورة بسيطة جدا فى تسيير أعمالها اليومية، لقد قام أحد الأكاديميين بالتعليق على جامعة القرن الواحد والعشرين بأنها عبارة ببساطة عن قيام جامعة ملبورن ببيع اسمها العريق، لكن وبما أن ذلك سيكون بعيداً كل البعد عن الحياة الأكاديمية اليومية، فلا يتوقع أن يثير ذلك إشكاليات واضطرابات فى الجامعة.

فى عام ٢٠٠١ لم يحصل رئيس جامعة موردوخ على عدد مطمئن من الأصوات من اتحادات الطلاب والأكاديميين والموظفين، وبغض النظر عن عدم شعبيته فى الحرم الجامعى، إلا أن سكاورتس استطاع ببصيرته التجارية وخبراته فى هذا المجال إدخال الجامعة فى عالم التجارة، وأن يعيد بناء جامعة موردوخ كمؤسسة تجارية، وأن يدعم النظام الإدارى فيها.

فى جامعة موناش، أشاد بعض الأكاديميين بقيادة روبنسن، فيما أبدى البعض

الأخر قلقة منها، وعبر أحد الإداريين عن إعجابه بروبنس حيث أنه لم يكن يدير الجامعة بأسلوب يركز على كل صغيرة وكبيرة كما يحصل فى الجامعات الأسترالية الأخرى، بينما علق أحد الأكاديميين من التخصصات الأدبية، غير الراضين عن الأسلوب الإدارى الحالى لجامعة موناش تعليقًا ذا صلة وثيقة بإدارة روبنسن للجامعة، حينما قال:

«إدارة جامعة موناش بأسلوب تجارى والنمو المضطرد فى الجانب الإدارى أوجد أوضاعًا يصعب معها أن تحافظ الجامعة على قدرتها التنافسية مع الجامعات الأخرى، ما الذى سيحل محل الأمانة التى جعلت الجامعة منفتحة على التأمل العلمى، فالتعاون ليس من أجل العمل لمصلحة المجتمع والسعى وراء المعرفة العلمية من أجل المعرفة العلمية، وإنما من أجل العمل على إيجاد آليات لمضاعفة الربح المادى».

من الضرورى ملاحظة أن بعض الأكاديميين والإداريين فى هذه الجامعات سعداء برؤية جامعاتهم تصبح أكثر تجارية، كما توجد معارضة فى هذه الجامعات، ولكن هذه المعارضة فى الغالب من الأقسام الأدبية والإنسانية، ونادرا ما تجد معارضة من أقسام الهندسة ونظم المعلومات والتجارية، فأعضاء هذه الأقسام أكثر راحة مع الضغط المتولد من الإدارة التجارية لهذه الجامعات، كما أن عديدًا منهم يرحب كذلك بالاستقلال المالى عن الحكومة، الذى سوف يوفره هذا التوجه فى هذه الجامعات.

من رؤساء الجامعات الثلاثة المذكورين، بقى جليبرت فقط كرئيس للجامعة إلا أنه أحبط من عدم التقدم فى الجامعات الأسترالية، وقد أجريت مقابلة مع جليبرت فى عام ٢٠٠٢، والذى كان ينظر إليه كقائد مسئول عن إصلاح الجامعات الأسترالية، والتى يعتقد جليبرت أنها متأخرة عن الجامعات فى أنحاء العالم الأخرى، فحسب لايت فإن جليبرت متأسف جدا على الانتشار الواسع لإهمال الدور الذى يمكن أن تلعبه الجامعة فى ثورة المعرفة، العالمية، وعلى أية حال فإن جميع رؤساء الجامعات الثلاثة وظفوا جميع استراتيجيات سكيلر الأربعة ابتداء من معياره للرؤية العالمية. وسيتم تسليط الضوء خلال الفقرات القادمة على الكيفية التى عمل بها رؤساء هذه الجامعات لها؛ لتصبح أحد اللاعبين الدوليين، كما سيعرض بعض المشكلات التى واجهتهم.

الرؤية العالمية

تفتخر الجامعات بتطويرها لرسائلها التى تتقبل وتتعامل مع تحدى العولمة، ويقترح سكيلر أن المؤسسات العالمية بحاجة إلى رؤية دولية لها على وجه الخصوص؛ ذلك أنها فى عملية التحول من انتمائها الوطنى وإعادة صياغة روابطها التى كانت مع بلد منشئها لتكوين روابط جديدة مع الأسواق والشركاء العالميين، وأحد تعابير الرؤية العالمية التى حددها سكيلر هى الرغبة لتطوير المنظمة، وهى: «للمؤسسة رؤية أن تصبح منظمة بصورة أفضل لتستطيع أن تصل إلى مصيرها المحتوم، وهو النجاح على المستوى العالمى».

قام جليبرت فى عام ١٩٩٨ بتأسيس جامعة ملبورن الخاصة كجزء من رؤيته لجعل جامعة ملبورن لديها استقلالية مالية بشكل كبير، فجامعة ملبورن الخاصة أسست على توقعات أنها سوف تطور إنشاءات بما يقرب من ٢٥٠ مليون فى جامعة ملبورن، وسوف ينضم إليها ما يقرب من ٢٨٠٠ طالب ممن يدفعون رسومًا جامعية، وأنها سوف تولد المليارات من الدولارات من أنشطتها الاقتصادية. وعلى أية حال.. فإنها تشغل الآن طابقًا واحدًا من أحد أبنية حرم جامعة ملبورن. من جانب آخر، فإن جامعة ملبورن الخاصة بها فقط ١٠١ طالبًا من دافعى الرسوم، وتحولت الآن لتوفير تدريب معتمد لبعض زبائنها، لقد خطط لجامعة ملبورن الخاصة أن توظف كادراً أكاديميًا بما فيهم من يحملون رتبة الأستاذية، إلا أنه لا يوجد بها أية كلية مستقلة ولاأية كادر أكاديمى، كما أنها لم تستطع أن تجذب أى شريك لها.

فى عام ٢٠٠١ طلب حاكم مقاطعة فكتوريا من جورج رامسى، مدير عام التربية السابقة فى جنوب ويلز الجديدة، أن يقيم الجامعة، وصف رامسى جامعة ملبورن الخاصة بأنها تجربة فريدة عندما قال: «جامعة ملبورن الخاصة ليست كأية جامعة أخرى، ليس فقط فى أستراليا، ولكن حتى فى أرجاء العالم». ففى جامعة ملبورن الخاصة أربع مجالات أكاديمية فقط: القيادة وإدارة الأعمال الدولية، والاتصالات الدولية والإدارة، والطاقة والبيئة، والاتصالات والوسائط المتعددة ونظم المعلومات. وقد طورت هذه البرامج لجذب مؤسسات القطاعين العام والخاص، ولاحظ رامسى كذلك أن هذه البرامج ليست ضمن المجالات التقليدية التى تستخدم عادة فى تأسيس

الجامعات العادية، وأن كيان الجامعة الحالى مختلف من حيث المجالات والوظيفة عن الظروف المعتمدة للعمل كجامعة. ومن جهة أخرى، وصف جامعة ملبورن الخاصة بأنها أكثر بعض الشيء بقليل عن الجناح التجارى لجامعة ملبورن، فى الوقت نفسه فقد شجع فكرة إعادة صياغة مفاهيم طبيعة الجامعات لتحتوى على ما يشبه جامعة ملبورن الخاصة، والتى لم تؤسس فى إطار الخطوط العامة للجامعات التقليدية.

لم يكن مفهوم حكومة فكتوريا عن الجامعات حداثيًا؛ لذلك فقد قررت أن تعطى جامعة ملبورن الخاصة لغاية ٢٠٠١ لتؤسس بحثًا علميًا ذا صبغة أكثر تقليدية، فمن وجهة نظر الحكومة، فإن البحث العلمى الموجه من قبل عملاء الجامعة لا يفى وحده بالجانب البحثى الواسع المطلوب من الجامعة، فوزير التربية السابق لين كوسكى ذكر كإنذار أخير لجليبرت: «يجب أن تقوم ببحث أكاديمى فى جامعة ملبورن الخاصة أو عليكم أن تتوقفوا عن أن تطلقوا عليها جامعة»، فهى لم تتقبل فكرة أن العمل لصالح عملاء الجامعة يجب أن يعد كجانب بحثى، عندما قالت: «البحث العلمى الخالص هو عبارة عن تفكير حر» كما قالت: «عندما يقال أن البحث العلمى ينبغى أن يكون موجه حسب الحاجة، فأنت تتكلم عن التحكم بطبيعة البحث العلمى الذى يمكن أن يجرى فى الجامعات».

حسب السيناتور كيم كر المتحدث باسم المعارضة فيما يخص التعليم العالى، فإن جامعة ملبورن الخاصة متطفل خطير، فهى محاولة من رئيسها الن جليبرت للتحايل على القوانين لتحويل الجامعة إلى تجارة، باستغلال المكانة العريقة لجامعة ملبورن الأصلية، الـ CEO لجامعة ملبورن الخاصة، ديفيد اللويد، اتهم حكومة فكتوريا والأشخاص الذين يشاركون كر وجهات نظره بمحاولة تحطيم التجربة التربوية فى جامعته، عندما قال: «إنها أيادى الاجتماعيين الآثمة تصل لتخنق المستقبل».

خلال الفترة من ١٩٩٦ إلى ٢٠٠١، حاول سكورتز تحويل جامعة مردوخ إلى مؤسسة تجارية، ففى عام ١٩٩٦ أصدر رؤيته الخاصة عن الجامعة، ألا وهى: «تجهيز الجامعة للقرن الواحد والعشرين». فتحت عنوان فى إحدى الوثائق كتب فيه «أوجد عوائد للإنتاجية وأدير بطريقة إستراتيجية»، تحتوى الأفعال الرئيسة المطلوبة على

التعاون بصورة وثيقة مع الجامعات الأخرى (من التعاون إلى الاندماج) وإعادة بناء النظام بالجامعة لتطوير إدارتها، وزيادة فاعلية وتحرير الموارد لأداء الوظائف الرئيسة للجامعة، فالعمداء التنفيذيون يعينون ويكونون مسئولين عن الجانب الإدارى وبعيدين عن الموظفين الأكاديميين، ففى عام ١٩٩٩ قام مجلس جامعة مردوخ بتحديد رؤيته التى حدد فيها أربعة أعمدة رئيسة، والتى كانت بدورها تفتقد إلى الاهتمام بالبحث العلمى والتدريس، والتى كانت:

- تطوير الجامعة بحيث تصبح أكثر جاذبية للسوق.
- تنويع مصادر الدخل.
- بناء نظام إدارى فاعل وكفء.
- خلق ثقافة تجارية.

أفضل الممارسات العالمية

لقد تبنت الجامعات الأسترالية ممارسات إدارية فى مجال المسؤولية، يمكن أن تدخل ضمن أفضل الممارسات العالمية مثل إدارة الجودة الشاملة، ونظام الممتحن الخارجى الذى يسعى لخلق ثقافة تعتمد على مؤشرات الأداء، ويقترح سكيلر (٢٠٠١) أن بعض الاستراتيجيات الأخرى المتبعة عند طبقة الرأسماليين الانتقاليين فى طريقها لتدخل ضمن أفضل الممارسات العالمية، فبالإضافة لحركة الجودة توجد ممارسة أخرى مأخوذة من المجال التجارى، ألا وهى الاندماجات والتحالفات، والتى تغزو التعليم العالى بمعدلات متسارعة، ولدى كونينهام وآخرين ملاحظة فيما يتعلق باقتصاديات التعليم، عندما قالوا: «إحدى الملاحظات الرئيسة على اقتصاديات التعليم هى الأنشطة المحمومة فى البحث عن شركاء وحلفاء، والبحث عن خدمات خارجية وبالأخص بين المؤسسات التعليمية وشركات التقنية».

جامعة القرن الواحد والعشرين هى أحد الأمثلة للتحالفات بين الجامعات فى عشرة بلدان، من ضمنها جامعات أسترالية، والصين، وكندا والمملكة المتحدة لتوفير مقررات إلكترونية على شبكة المعلومات الدولية الإنترنت، هذه هى إحدى مبادرات جليبرت؛ فهو يترأس مجلس جامعة القرن الواحد والعشرين الدولية، فجامعة

ملبورن هى أكبر مؤسسة ساهمت فى هذا المشروع، فلقد التزمت بخمسة ملايين دولار فى اللحظة الأولى مع ما يقرب من ثلاثة ملايين إضافية ستأتى لاحقا، فهذه الشبكة مع شركة ثومسون (عملاق النشر الكندية) لتأسيس جامعة الإنترنت جامعة القرن الواحد والعشرين العالمية فى ٢٠٠٣، لقد اتحدت جامعة القرن الواحد والعشرين مع جيرنسى (Guernsey) مؤسسة الضرائب المعروفة جدا، وبعد ذلك فى سبتمبر ٢٠٠١ سجلت جامعة القرن الواحد والعشرين العالمية فى سنغافورة المكان، الذى غالبا ما تكون فيه أنشطة اتحادات التجارة محددة بصورة عالية، ورأس المال المشترك المستثمر بين هؤلاء الشركاء يصل إلى ما يقرب من ٩٠ مليون دولار أسترالى (٥١,٨ مليون دولار أمريكى).

يؤكد جليبرت بثقة على الأمانة الأكاديمية وقابلية الحياة المادية فى المشروع الجديد، ففيه تتكلم الكلمات أكثر عن الدافع المادى أكثر من الجودة التعليمية:

«أسلوب تشييد الأعمال الأساسى، وقيمة الاسم المعروف، ومتطلبات السوق كلها صحيحة.... ثومسن شريك مميز يتمتع بالموارد والمهارات والخبرة والبنية التحتية والتركيز على التعلم الشبكى؛ لرفع قدرة الاسم المعتمد لجامعة القرن الواحد والعشرين».

الاتحادات الأكاديمية متوجسة من طبيعة العرض، ومن حقيقة عدم وجود خطط لتوظيف أيا من الأكاديميين فى التشكيلات القيادية فى الجامعة العالمية الجديدة، ففى عام ٢٠٠١ طلب الاتحاد الوطنى للتربية فى أستراليا (NTEU) وجمعية أساتذة الجامعات فى المملكة المتحدة (AUT) والاتحادات الأكاديمية فى كل من نيوزلاند وأوربا وشمال أمريكا من جامعة القرن الواحد والعشرين أن تؤجل شراكتها الشبكية مع ثومسن، حتى يتم حل جميع القضايا المتعلقة بالأكاديميين وجميع الموظفين، وكان التخوف الأكبر من التعاقد مع ثومسن لوضع محتوى المقررات وطرق التقويم، وتراجعت ثلاث من الجامعات هى جامعة بيكنج وجامعة تورنتو وجامعة ميتشجان عن الاشتراك فى المقررات، التى سوف تطرح عن طريق الشبكة الإلكترونية. كما اعترضت الاتحادات الأكاديمية على خصخصة الجامعات، «هناك تخوف من أن مؤسساتهم الجامعية تستثمر مبالغ كبيرة فى مشاريع لا توجد لها ضمانات لنجاحها

التجارى، والتى تتبع أسلوبًا تجاريًا غير معتمد؛ مما قد يؤدى إلى التقليل من الاحترام الذى تحظى بها مؤهلاتها فى حالة فشل المشروع». كتب كارلين البورت الرئيس الوطنى لـ(NTEU) عن هذه المخاوف المتعلقة بجامعة القرن الواحد والعشرين، قائلاً:

«مشروع جامعة القرن الواحد والعشرين أثار عديداً من القضايا المتعلقة حول الطرق الجديدة لإنتاج العولمة، كما جلب التركيز إلى النهاية السريعة لتحويل مؤسسات التعليم العالى إلى شركات، وبناءً على العرض المقترح، فإن شركة ثومسن ستكون مسئولة عن تصميم المقررات وتطوير المحتوى والاختبارات والتقويم وقواعد معلومات الطلبة والإدارة والترجمة، فالجامعات سوف ترخص استخدام أسمائها المعروفة، فهى سوف تحصل على مبالغ نتيجة تركها لبعض المؤسسات العالمية أن تستخدم مكانتها، فالجامعات فى حقيقة الأمر لا تبيع مقرراتها، وإنما تبيع مكانتها ومستواها الذى وصلت إليه».

إن هذا المشروع الربحى سوف يجنى بعض الأرباح من بيع كل مؤسسة من هذه المؤسسات لاسمها المعروف وليس من بيع مقرراتها، إن طبيعة العمل تعنى وجود فصل بين تصميم المقررات وتطوير المناهج وبين عمليات التعلم والتقويم، بالإضافة إلى ذلك فلا توجد أية ضمانات باشتراك الأكاديميين من أى من هذا الجامعات المشتركة فى هذا المشروع».

الاستثمار الأجنبى المباشر

تقوم الجامعات بالاستثمار بصورة مرتفعة فيما وراء البحار؛ لتحقيق أرباح من المقرات الخاصة لها، جامعة القرن الواحد والعشرين مثال لهذا النوع من الاستثمار الأجنبى المباشر (FDI)، يناقش سكيلر وجود علاقة بين الاستثمار الأجنبى المباشر والعولمة: «العولمة كانت ضرورية لزيادة قيمة مالكى الأسهم، والاستثمار الأجنبى المباشر كان إستراتيجية، تم من خلالها تحقيق نجاحات لمعظم الشركات، كما لاحظ أنه منذ السبعينيات من القرن الماضى أصبح من السهولة بمكان للـ(TNCs) الاستثمار فى كل بلد فى العالم تقريبا.

ثمة مثال آخر على الاستثمار الأجنبى المباشر فى التعليم العالى، هو الأموال التى يضخها الطلاب الأجانب فى اقتصاديات بعض الدول مثل أستراليا وكندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، لو أخذنا أستراليا كمثال لوجدنا أن عدد الطلاب الأجانب تضاعف خلال الخمس سنوات من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٨ (من ٤١٢٤٤ إلى ٨٤٣٠٤ طالب)، وبغض النظر عن التباطؤ فى اقتصاديات الدول الآسيوية فى الفترة بين ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩ إلى أن الزيادة فى أعداد الطلاب ما زالت موجودة، وإن وجد بعض التباطؤ فى نمو أعداد الطلاب فى الفترة المذكورة، ففى عام ٢٠٠١ بلغ عدد الطلاب الأجانب فى الجامعات الأسترالية ما يبلغ ١١٢٣٤٢؛ أى ما يمثل ١٥,٥٪ من إجمالى الطلاب فى الجامعات الأسترالية، وما يثير الاهتمام ملاحظة أن مقار الجامعات الأسترالية خارج أستراليا تنمو بصورة أكبر من النمو فى أعداد الطلاب الأجانب فى الجامعات الأسترالية داخل أستراليا: فيما بين الفترة من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٨ كان النمو فى أعداد الطلاب الأجانب داخل الجامعات الأسترالية فى أستراليا ٧٪ بينما كان النمو فى أعداد الطلاب فى أفرع الجامعات الأسترالية خارج أستراليا ٤١٪، ولذلك يمكن اعتبار هذه الأفرع للجامعات خارج بلدانها نوعًا من الاستثمار الأجنبى المباشر بصورة أوضح من دراسة طلاب أجانب داخل الجامعات الأسترالية فى أستراليا نفسها.

تتزعم جامعة موناش التوجه الحالى فى الجامعات الأسترالية، فيما يتعلق بخلق جامعات عالمية، فرؤيتها تلخصت فى منظومة مقار تتوزع فى شبكة تربوية حول العالم، فحاليا لديها ثمانية مقار فى أماكن مختلفة من العالم، من ضمنها: مقر ماليزيا ومقر جنوب أفريقيا، بالإضافة إلى وجود مراكز لها فى لندن وبراتو وإيطاليا بجانب وجود برامج لها فى الصين وهونج كونج، كما أن للجامعة شراكات مع عديد من الجامعات حول العالم، لقد وصفت الجامعة نفسها ومستقبلها كملف كتب عليه «جامعة موناش ٢٠٢٠: تقود الطريق».

إن ظهور رؤية موناش ٢٠٢٠ المتعمدة على نفسها، الجامعة العالمية ذات التواجد الواسع، جعل جامعة موناش جامعة أسترالية وعالمية، كما أنها فى الوقت نفسه تقبلت فرصة وتحدى العولمة، إن أكثر الجامعات ذات التواجد الواسع حول العالم

نجاحا مستقبلا هى تلك التى تستطيع أن تعمل بصورة متوازية محليا وعالميا، وتستطيع كذلك تقديم مزيج من فرص التعلم عالية الجودة فى مقارها المختلفة والتعلم عن بعد المدعوم بالتكنولوجيا لطلابها وعملائها، فستطور جامعة موناش شبكة مقار عالمية، وستوفر جميع هذه المقار لطلابها نافذة على العالم، وستقوم باجتذاب أعضاء هيئة التدريس والطلاب المتميزين حول العالم ليكونوا جزءًا من جامعة ذات تواجد عالمى وإمكانيات ومعايير عالمية كذلك (Monash University, 2002).

تتوقع جامعة موناش أن تقوم ببناء شبكتها على مهل، وليس بالضرورة أن تحقق أرباحًا على المدى القصير، فلقد حققت نجاحًا ملحوظًا على صعيد مقرها فى ماليزيا الذى أسس فى فبراير ١٩٩٨ بما يقرب من ٣٥٠ طالبًا، وفى منتصف ٢٠٠١ بلغ عدد الطلاب ما يقرب من ١٥٠٠ طالب بمقر بني خصيصًا للجامعة جهز حتى يستطيع استيعاب ما يقرب من ٨٠٠٠ طالب، وعلى أية حال لا يمكن اعتبار ذلك نقطة انطلاق لجامعة موناش، فإحدى المشكلات التى ظهرت فى مقر جنوب أفريقيا الذى تم تدشينه فى أكتوبر ٢٠٠٠ هو أن حكومة جنوب أفريقيا رفضت أن تطلق على المقر اسم جامعة، وإنما أن يكتفى بأن يطلق عليه بكل بساطة موناش جنوب أفريقيا.

الجنسية المشتركة

تفكر الجامعات فى نفسها بأن لها جنسية مشتركة، مثل ما يحصل فى الشركات حاليا، ويصف سكلير الجنسية المشتركة بالتالى:

«مع عولمة الاقتصاد وتغيير الظروف المحلية، أصبح قادة الأعمال مطالبين بالدخول فى صراع مع قضايا معقدة، لن تؤثر فقط على ملاك الأسهم وموظفيهم وزبائنهم، بل على جودة الحياة فى المجتمعات المحلية والبيئة والناس والبلدان حول العالم» (Sklair, 2001, p. 159).

وهذا يفترض أن القادة الاقتصاديين مهتمون أكثر من الحد الأدنى فقط، إنما يتعدى اهتمامهم ليشمل جودة الحياة فى مجتمعاتهم.

تبنت جامعة موردوخ تحت قيادة سكاورتز أجندة اتحادية، ووصفت نفسها بأنها مواطن اتحادى. مثل عديد من رؤساء الجامعات الجدد، طور سكاورتز شعاراً ورمزاً

جديداً لتصوره الاتحادى الجديد للجامعة. وفى وثيقة تصف الجامعة، أشار سكاورتز إلى الجامعة كمواطن متحد مع المجتمع، وفى الوقت نفسه خطط لفتح الحرم الجامعى لمحطات الوقود (مع وجود ٣ محطات على بعد عدة كيلومترات بسيطة من الجامعة) مطاعم الوجبات السريعة (مع وجود عديد منها فى القرب)، كما أنه وقع عقداً مع إحدى شركات الهواتف النقالة لإنشاء برج اتصالات بالقرب من مركز لرعاية الأطفال، بالإضافة للالتماسات والاحتجاجات من قبل الموظفين والطلاب، عقدت عديداً من الاجتماعات مع أفراد المجتمع؛ للاحتجاج على هذه التطورات. وكنتيجة لذلك لم تواصل الجامعة بناء برج الاتصالات ومحطة الوقود ومطاعم الوجبات السريعة، وعلى أية حال لقد منحت بعض أراضيها لثلاثة مشاريع تجارية، هى: كلية موردوخ وبيت سانت لفيس للمتقاعدين والشقق المطلة على البحيرة، وعلى الرغم من وجود معارضة لمبادرات رئيس الجامعة ولاستخدام كلمة «المواطن المتحد» للتعبير عن الجامعات، إلا أن سكاورتز نجح فى تحويل الجامعة إلى حالة اتحادية مع مؤسسات أخرى.

العولمة والجامعات العالمية: حالة تقويم

إنه مما لا شك فيه أن الجو السائد فى الجامعات الأسترالية يعانى للبقاء من الناحية المادية، فلقد أدارت الحكومة ظهرها للجامعات، متجاهلة التماس الجامعات لزيادة تمويلها، وتقر بعدم وجود أية أزمات فى الجامعات، بالإضافة لذلك.. فإن وزير التربية الحالى برندان نلسون واصل استهدافه الكادر الأكاديمى فى تقييمه لمؤسسات التعليم العالى، فهو يريد من الجامعات أن تطور قوى عاملة أكثر فاعلية من وجهة نظره؛ بحيث تكون أكثر مرونة وتفكيراً تجارياً (Richardson, 2002, p.2). إن الحكومة الحالية تؤمن بقلة التحكم بنظام الجامعات وزيادة الحلول الإدارية لمشكلات الجامعات، وعلى العموم يوجد عديد من النماذج الأخرى التى يمكن الاستفادة منها في قيادة الجامعات فى اتجاه الأقل إدارية والأقل اعتماداً على الممارسات التجارية، وفى الوقت نفسه ضمان عدم إفلاس هذه الجامعات.

هؤلاء الرؤساء الثلاثة تصرفوا كلاعبين عالميين مع إيمانهم بإمكاناتهم للارتقاء بجامعاتهم لتنافس فى مرحلة العولمة، ولم يكن ذلك سهلا، فكل واحد منهم اتخذ

قرارات فريدة، وقابل مواجهات لكل خطوة فى طريقة لتنفيذ قراراته، ولعل ذلك كان أكثر وضوحًا فى حالة جامعة ملبورن وجامعة مردوخ، كما توجد حالة من عدم الارتياح فى جامعة موناش من توسع الجامعة فى أماكن كثيرة فى العالم، ومن التوجه بصورة كبيرة للإدارة.

لقد كان لهؤلاء الرؤساء أجندة واضحة، ولقد كانت لديهم الرغبة لتحمل المسؤولية ليكون لاعبين دوليين، ففى النهاية قاموا بإدخال نظام المقاولين الإدارى فى جامعتهم، وقد تكون النظرية الإدارية مفيدة للجامعات إذا تم غرسها من خلال الديمقراطية الأكاديمية، وذلك بوجود ممثل من كل كلية لتشجيع الحوار حول القضايا الأكاديمية وعملية صنع القرارات العامة (Currie, 1999)، إلا أن هذا لم يحدث أثناء إعادة صياغة الإدارة الجديدة فى جو أخوى أكاديمى مبنى على مجموع المجموعات السابقة والمفاضلة، وكنتيجة لذلك ظهرت إدارة عدائية فى معظم الجامعات الأسترالية تزيد الضغط وسوء الظن بين أوساط الموظفين (Currie et al., 2002)، وهذا بدوره أسهم فى خلق سياق غير صحى لكل من المدراء والعاملين فى هذه الجامعات.

فى الصياغة المثالية لرسالة الجامعة لهذه الجامعات، يتضح وجود العديد من الفوائد التى سوف يتم الحصول عليها من الاستثمار فى المقار العالمية للجامعات ومن تطوير حلفاء مع جامعات مرموقة فى الدول الأخرى، وفى الحقيقة فإنه فى ضوء هذه الممارسات العالمية للجامعات، فإن البلدان الأخرى سوف تستفيد بالإضافة لأستراليا أيضا، لا سيما إذا تم إتباع الأهداف التى وضعتها هذه الجامعات لنفسها، فعلى سبيل المثال فى إستراتيجية موناش ٢٠٢٠ ذكر أن مقار الجامعة العالمية يجب أن تندمج فى ثقافة البلدان الموجودة فيها، ويجب أن تساهم فى الازدهار والنمو فى البلدان الموجودة فيها (Monash University, 2002)، فليكون تفكيرك وطنيًا، فأنت تحتاج إلى نوع مختلف من الوطنية متمركز حول المصالح العامة، فقيمة المصلحة العامة للجامعات هى إحدى الخسائر الحرجة من خصخصة الجامعات، فلا يوجد شك فى أن الجامعات العالمية يمكن أن تنافس بصورة أفضل فى الإنتاجية والربح، ولكنها خسرت أنواعًا محددة من الالتزامات تجاه المجتمع.

خلاصة

يوجد دعم متزايد لرؤية بديلة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وتحفظات على أثر العولمة على المجتمعات والظلم الناتج من الاعتماد على فلسفة السوق الحر، فهذه التحفظات واضحة للعيان إذا أخذنا فى الاعتبار المسارات السياسية للعولمة فى العقدين الماضيين، ففى الثمانينيات وبدايات التسعينيات لم يكن يفرق بين من فى السلطة فى البلدان الأنجلو أمريكية سواء كانت يمينية أو يسارية التوجه، فهذه الحكومات سعت للتغيرات التى تقود إلى قبول الممارسات العالمية للخصخصة والتسويق والأساليب الإدارية الحديثة، فجميع هذه الحكومات قامت بتغيرات جذرية فى الطرق التى نظمت على أساسها الجامعات وعلى استمرارية الكادر الأكاديمى، فحاليا توجد تحفظات حول إذا ما كانت الحركة لليمين الجديد ذهبت بعيداً لتصاحبها خسارة كبيرة للخدمات العامة، فعلى سبيل المثال ذكر هندرسون (Henderson, 2001) أن الخصخصة فى أستراليا أوجدت تحسنًا طفيفًا فى الأداء المالى لمعظم الأعمال التجارية الحكومية، حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث فعالية السوق محل الثقة الأكبر فى العالم هناك تساؤلات كبيرة حول الخصخصة وقلة التحكم، فبعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر استبدل سياسيو الولايات المتحدة شركات الأمن الخاصة فى المطارات بمفتشين فيدراليين، وفى دالاس صوت أمناء إحدى المدارس بإنهاء عقدهم مع مدارس أدسون أكبر شبكات المدارس الربحية فى الولايات المتحدة؛ بسبب أن نتائج الطلاب ليست بالجودة التى تبرر حجم الرسوم المدفوعة. (Newsweek, 2 September 2002, p. 10)، حتى أن الرئيس السابق للبنك الدولى الاقتصادى جوزيف ستجلتز الحائز على جائزة نوبل عام ٢٠٠٢ ناقش التغيرات التى يفترض أن تعمل لسياسات البنك الدولى والـ IMF وشرح نقاط الضعف فى السياسات الاقتصادية العالمية.

فى مراجعة شاملة للعمل التجريبى للعولمة استنتج بيردسال ونيلس: «مبدئيا وفى المتوسط يمكن القول بأن الخصخصة جعلت توزيع الثروة والدخل أكثر سوء»؛ فالعديد من الدول الآسيوية يتحاشى مسارات الخصخصة، وبالمقابل فإنها تقوم بتمويل جامعاتها بصورة سخية.

بغض النظر عن بعض التراجعات فى أيديولوجية العولمة الحرة الحديثة، إلا أن قوى العولمة لن تتلاشى، فستواصل الجامعات موجهات التحديات العالم المتغير، الذى أصبح يدخل فى جميع التطورات المتقدمة فى تكنولوجيا الاتصالات؛ الأمر الذى يعزز فكرة الدول بلا حدود، إن العالم الذى بلا حدود أصبح حقيقة واقعة فى مجالات كثيرة من مجالات الحياة وسيتعزز ذلك مستقبلا، و ستستفيد الجامعات المتحدة أكثر من هذا العالم غير المقيد بحدود.

لقد أدى التعامل مع الجامعات كشركات إلى خيبة أمل فى أوساط الأكاديميين، ويمكن التدليل على ذلك من خلال عدد الأكاديميين الذين تركوا الجامعات الأسترالية متأثرين بالتحديد من الزيادة فى التعامل بصورة تجارية مع جامعاتهم، ومن إحدى القصص التى اشتهرت فى أستراليا فى عام ٢٠٠٢، والتى كان لها أثر كبير هى ترك اثنين من الأكاديميين البارزين لجامعتهم، أحدهم غادر جامعة ملبورن والآخر جامعة موناش، فسمسون قبل وظيفة فى جونز هوبكنس، وعندها قال: «الضغط لإيجاد مبالغ لتمويل الجامعات كان له ضحاياه من الأكاديميين»، ونتيجة لذلك فالحياة الفكرية فى الجامعات الأسترالية أضعفت بصورة واضحة جدا (Madden, 2002. p.31). وبعد ذلك بأسبوع، ترك اثنان من الأكاديميين وظائفهم فى الجامعات الأسترالية ليلتحقوا بوظائف فى الجامعات الأمريكية، ولقد أرجعوا ذلك لفقدانهم الثقة بنظام الجامعات الأسترالية، أحدهم من جامعة موناش والذى وضع قائمة من الأسباب لتركه الجامعة، وقد ركزت هذه الأسباب على الضعف فى جودة الجامعات؛ الأمر الذى كان محل تقدير جامعة موناش فى السابق.

إن السعى للربح قد يؤدى إلى خسارة الجامعات لإحدى أهم قيمها، وهى تطوير مواطنين ذوى فكر ومجتمع جدير بالعلم، مبنى على الثقة فى هذه الجامعات، وهذه القيم يمكن أن تتواجد فى الجامعات العالمية، إلا أن احتمالية تواجدها فى الجامعات التى تعطى ديمقراطية لكلياتها وتمول بالمال العام، وتكون موجهة لخدمة المجتمع أكثر من الجامعات ذات التوجه الإدارى البحت التى تؤسس لجنى الأرباح.. لذلك ينبغى علينا أن نثمن هذه القيم، وننافل فى سبيل عدم اندثارها فى الجامعات العالمية التى نسعى لتأسيسها.

الفصل الثالث عشر

نماذج جديدة للتعليم العالى: بناء المؤسسات المتمركزة حول تعليم الكبار*

كارياج د. سونسن

حقبة التغيير An Era of change

يشهد تاريخ البشرية حقبة زمانية تتلاحم فيها كل القوى الدولية من أجل التغيير فى كل مناحى الحياة. وترتب على سرعة التغيير وضخامته سيطرة الإحساس بعدم التوازن فى كل جانب من جوانب الحياة المجتمعية، وفى الوقت نفسه زيادة الضغط على مؤسسات المجتمع الرئيسة، بما فيها المنظومة الدولية للتعليم العالى.

ويواجه الأكاديميون متاهة يونج Young فى أعمالهم. فهم مطالبون بدراسة التغيرات والقوى الدافعة لها فى المجتمع ومؤسساته. وفى الوقت نفسه، عليهم قياس وتقويم والتنبؤ بالتغيرات، وانعكاساتها على مختلف مجالات الحياة والثقافة. هذه التغيرات تتطلب مواجهتها حتى لا تسود الفوضى داخل مؤسسات المجتمع. وهناك من يعتقد ضرورة أن تبقى المؤسسات التعليمية وشبكات الاتصال التعليمية استاتيكية (ثابتة)، كما لو كان هناك شكل أفلاطونى للكليات والجامعات يجب التمسك به والمحافظة عليه. لكن التعليم العالى، مثل بقية قطاعات المجتمع، يخضع للتغيرات التى يتعرض لها المجتمع ويتأثر بها، وفى الوقت نفسه، عليه مواجهتها، والاستعداد لها.

ومن الأمور المسلم بها أن أشكالا بنيوية جديدة للتعليم العالى سوف تظهر بفعل التغيرات المحلية والقومية والدولية، اقتصاديا وسكانيا وثقافيا وتكنولوجيا. وبعض دوافع وقوى التغيير سوف تختفى بمعدل السرعة نفسه الذى ظهرت به. والبعض الآخر سوف ينتعش نتيجة الاحتياجات المجتمعية. ولا يُفهم من ذلك أن الكليات والجامعات التقليدية سوف تختفى.

* ترجمة د. السيد البهواشى.

لكن العديد من المؤسسات سوف تظهر وتنتعش. والبعض الآخر سوف يختفى ويتغير بفعل قُوى ورياح التغيير. والفصل الثالث عشر يصف إحدى المؤسسات، جامعة فونكس phoenix، التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى الربع الأخير من القرن العشرين المنصرم، بفعل رياح التغيير المذكورة عاليه.

بناء جامعة متمركزة حول تعليم الكبار

شهد عام ١٩٧٦ إدخال أول حاسوب شخصى "Apple I"، ذلك الحدث الذى يؤكد مولد أول نظام اقتصادى جديد، ونجاح العقل البشرى فى تدعيم القطاع الصناعى لمواجهة القوى الاقتصادية الدولية الجديدة (العولمة). وفى الوقت نفسه، هذا التاريخ يُعتبر بداية لرياح التغيير فى التعليم العالى الأمريكى.

ورياح التغيير هذه تؤكد أن الوظائف المتاحة مستقبلا متوقفة على التغييرات التى يشهدها التعليم العالى. فشغل وظيفة مستقبلا قد يتطلب معرفة ومهارات عالية المستوى أكثر من تلك التى يحتاجها اقتصاد التصنيع. وفى الوقت نفسه، سوف يتأثر صغار وكبار العاملين بالتغيرات الاقتصادية المستقبلية، وقد يجدون أنفسهم مطالبين بالحصول على تعليم متقدم من أجل التكيُّف والتوافق مع المتغيرات الجديدة.

وفى عام ١٩٧٦، أسَّس جون سبيرلنج John Sperling، أحد خريجى جامعة كيمبريدج Cambridge، جامعة فونكس Phoenix. وتوقّع سبيرلنج Sperling تضافُر القوى الاقتصادية والتكنولوجية والسكانية التى تُبشر herald عودة الكبار العاملين للتعليم العالى النظامى.

وصارت جامعة فونكس Phoenix أكبر جامعة خاصة فى الولايات المتحدة خلال الربع الأخير من القرن العشرين، حيث تضم (٠٠٠ , ١٤٠) دارس. وافتُتحت فروعُ لها فى ست وعشرين ولاية أمريكية، وبورت ريكو، وروتردام بهولندا. كما تضم (٠٠٠ , ٥٠) دارس عبر البريد الإلكترونى. وتتميز الجامعة بتخصيص نموذج للتعليم والتعلم للكبار العاملين. كما تتميز بثقافة تنظيمية تساعد على الابتكار والتحسين المستمر. وتضع الجامعة خططا مستقبلية للتوسع الدولى، خاصة عبر البريد الإلكترونى.

والديناميكيات نفسها التى تشهدها الولايات المتحدة متحققة فى مناطق أخرى من المعمورة. والتنمية الاقتصادية الدولية لا تعتمد فقط على تعليم الشباب الاضطلاع بأدوارهم بوصفهم مواطنين فى المجتمع، وإعدادهم لكسب العيش بأنفسهم، لكن أيضا على تنمية تفكير الكبار من خلال التعلم مدى الحياة. فالاستجابة والتوافق مع المنافسة الاقتصادية الدولية يتطلب الإعداد والتأهيل الجيد للقوى العاملة فى المجتمع. ومن ثم فجامعة مثل فونكس Phoenix يمكن أن تُقدم دروسا حول كيفية بناء التعليم العالى للطلاب غير التقليديين.

البدايات Beginnings

فى بداية فترة السبعينيات من القرن العشرين، وتحديدا فى جامعة سان جوزيه San Jose بولاية كاليفورنيا الأمريكية، أجرى سبيرلنج Sperling وزملاؤه بحثا ميدانيا فى مجال تعليم الكبار. وركّز البحث على اكتشاف نظم التعليم والتعلم التى تُيسر توفير البرامج والخدمات التعليمية للعاملين الكبار الذين يرغبون استكمال أول توسعة تعليمهم لصقل خبرتهم ومسئولياتهم الوظيفية.

وفى الوقت نفسه، ركزت الكليات والجامعات فى تلك الحقبة الزمانية على توفير احتياجات الطلاب فى مرحلة الليسانس والبكالوريوس (١٨-٢٢ سنة). ولا غَرو فى ذلك، فمن الطبيعى أن تسخر الكليات والجامعات كل إمكاناتها لخدمة تلك الفئة السنية، على اعتبار أنهم خريجو المدرسة الثانوية العليا.

ويرى سبيرلنج Sperling أن العاملين الكبار محدودون، ويُعَاملون كطلاب من الدرجة الثانية. إذ لا تبذل أى مجهودات للوفاء باحتياجات هؤلاء الكبار. فالجامعة لا تفتح أبوابها لهم مساءً. الأمر الذى يدفع العاملين الكبار إلى مغادرة مكان عملهم قبل انتهاء فترة العمل الرسمية، لتسجيل أنفسهم، وشراء الكتب، ومقابلة الأساتذة. وقاعات الدراسة تفتح أبوابها يومين أو ثلاثة مساءً كل أسبوع. وتكون النتيجة، كما يقول سبيرلنج Sperling، أن معظم العاملين الكبار غير قادرين على إنهاء برنامج الدراسة فى فترة زمانية، لا تقل عن ثمانى سنوات (برنامج الأربع السنوات).

وذهب سبيرلنج Sperling فى بحثه إلى أن العاملين الكبار يستمتعون بتوسعة أهدافهم التعليمية، وأنهم يختلفون عن الطلاب الذين لم يتخرجوا فى الجامعة من

عدة نواح. ويوصى بضرورة اهتمام المؤسسات التعليمية بخصائص التعلم وحياة العاملين الكبار. ويقترح عدة أساليب تساعد المؤسسات التعليمية على تطوير المناهج وبرامج التعلم وطرائق التعليم والخدمات الطلابية للعاملين الكبار.

وساهمت هذه الاعتقادات فى تأسيس جامعة فونكس Phoenix. ومازالت هذه الاعتقادات نفسها بمثابة الوحى الملهم لرسالة الجامعة وأغراضها واستراتيجياتها وكمؤسسة، تُعتبر جامعة فونكس Phoenix فريدة فى التزامها بالاحتياجات التعليمية للعاملين الكبار. وهذا الاهتمام من جانب الجامعة يسهم فى تحديد نموذج التعليم والتعلم، وتوفير الخدمات الطلابية، وتصميم البنية الإدارية والأكاديمية. كما يرشد هذا الاهتمام الجامعة فى التخطيط والإعداد للوفاء باحتياجات العاملين الكبار.

مهمة فريدة A Unique Mission

تركّز رسالة جامعة فونكس Phoenix وأغراضها على تعلم الطلاب، وتَعْتَبر هذا التمحور الوسيلة أو الأداة Vehicle التى تتحقق من خلالها الأهداف التعليمية العامة. كما تركز رسالة الجامعة على التجديد والابتكار والتحسين المستمر وتحقيق الجودة.

كما تستهدف رسالة جامعة فونكس Phoenix تعليم العاملين الكبار كيفية تطوير المعارف والمهارات التى تساعدهم على تحقيق أهدافهم المهنية وتحسين الإنتاجية، والقيادة الجيدة، وخدمة مجتمعاتهم.

وتتمثل أغراض الجامعة فى:

١ـ تسهيل التعلم المعرفى والوجدانى للطلاب، واكتساب المعارف والمهارات والقيم، بالإضافة إلى تيسير الطريق أمام الطلاب لاستخدام المعارف فى حياتهم المهنية والوظيفية.

٢ـ تطوير الكفاءة والكفاية فى مجالات الاتصال والتفكير والتعاون واستخدام المعلومات، بالإضافة إلى الالتزام بتوفير التعلم مدى الحياة لمساعدة الطلاب على النجاح فى حياتهم العملية.

٣ـ تقديم تعليم يقلل الفجوة بين النظرية والتطبيق، من خلال قيام الأساتذة بالإعداد الأكاديمى الجيد للطلاب، وتوفير المهارات التى تفيد الطلاب فى حياتهم الوظيفية بعد التخرج فى الجامعة.

٤- استخدام التكنولوجيا التى تيسر تكوين وبناء النماذج الفاعلة، ووسائل التعليم التى تيسر الوصول إلى مصادر التعلم، والتى تزيد التعاون والاتصال من أجل تحسين عملية التعلم لدى الطلاب.

٥- تقييم تعلم الطلاب، واستخدام بيانات التقييم لتحسين نظام التعليم والتعلم والمناهج ومصادر التعلم والإرشاد والخدمات الطلابية.

٦- توفير الموارد المالية اللازمة لدعم رسالة الجامعة.

٧- جعل الجامعة مؤسسة فاعلة تُثرى روح الابتكار التى تركز على تحقيق الجودة الأكاديمية والتفوق وتقديم خدمات جيدة للعاملين الكبار.

نموذج التعليم والتعلم للكبار

نظرا لأن جامعة فونكس Phoenix تأسست لخدمة العاملين الكبار (كبار السن)، فإن نموذج الجامعة للتعليم والتعلم له جذوره فى الأدبيات النظرية والأمبريقية الخاصة بتعلم الكبار، وفى علم النفس المعرفى، ويستخدم الممارسات الجيدة من الأدبيات الخاصة بتعليم الكبار. والسطور القادمة توضح الملامح الرئيسة لهذا النموذج.

التعلم الفاعل Active Learning

يقوم نموذج جامعة فونكس Phoenix للتعليم والتعلم على افتراض مؤداه أن المشاركة الفاعلة من جانب المتعلم فى عملية التعلم ضرورية للممارسة الجيدة. وتوفير التعليم الذى يستخدم المجال الوجدانى يساعد المتعلم الكبير على الارتباط بالمجال المعرفى. وقاعات الدراسة بجامعة فونكس Phoenix مصممة بطريقة تجعلها أماكنا ديناميكية للتعلم.

والأساتذة ميسرون للتعلم، حيث يديرون عملية التعلم عن طريق إشراك المتعلمين فى أنشطة مختلفة تدفع المتعلمين إلى فهم محتوى المقرر، وتطوير الكفاية الأكاديمية والمهنية، وباشتراك الطلاب فى أنشطة مختلفة للتعلم، يكتسب الطلاب الاحترام لطرائق التعلم والمعرفة. وتزداد فرص التفاعل والمشاركة فى القاعات وفرق التعلم. ورغم وجود عناصر تعليمية فى كل مقرر دراسى، إلا أن هذه العناصر يثريها ويصقلها مشاركة الطلاب فى المناقشات العلمية والتأمل والتطبيق.

بيئة تعلم قائمة على التعاون

تحرص جامعة فونكس Phoenix على توفير الفرص التى تسهم فى تحقيق فاعلية التعاون لزيادة التعلم. فالبنى Structures التعليمية التى تشجع وتيسر التعاون ضرورية ورئيسة لنموذج التعليم - التعلم. فالمتعلمون الكبار يذهبون إلى أنشطة التعلم النظامية وهم مزودون بخبرات عملية أكثر مما لدى المتعلمين الصغار الذين لم يتخرجوا فى الجامعة بعد. وهذا يعنى أن المتعلمين أنفسهم يمكن أن يكونوا مصادر مفيدة لزيادة تعلمهم. ونموذج التعليم التقليدى يركز على الجانب التلقينى من المعلم للمتعلم، وعلى الانتقال الرأسى للمعلومات. والطلاب الكبار ذوو الخبرات المتنوعة والثرية يستفيدون من الممارسات التعليمية التى تشجع التعاون. وهذا يضيف بُعدا أفقيا لتبادل التعلم؛ حيث يُعلّم الطلاب الكبار بعضهم البعض.

شكل فريد للبرنامج

جامعة فونكس Phoenix لا تعمل وِفق التقويم الأكاديمى التقليدى. فالطلاب الجدد يبدأون دراستهم فى أى وقت من السنة دون النظر للفصل الدراسى (التيرم) التقليدى. كذلك مقررات الخريجين تستمر لمدة ستة أسابيع، بينما تستغرق مقررات غير الخريجين خمسة أسابيع. وعندما ينتهى المقرر، يبدأ المقرر الثانى فورا (الأسبوع التالى مباشرة). هذا التقويم المكثف يسمح للكبار بتحقيق أهدافهم التعليمية بطريقة فاعلة.

والمجموعة الطلابية (الدارسون) بجامعة فونكس Phoenix لا تزيد عن ثلاثة عشر طالبا. وهذا العدد الصغير ييسر التعاون والتعلم الفاعل، ويثرى التفاعل بين الطلاب والأستاذ، ويسمح فى الوقت نفسه بالتركيز على المادة الدراسية. كما أن هذه البنية Structure لجامعة فونكس تزيد التعلم، وتساعد الطلاب على تحقيق التوازن بين المسئوليات الوظيفية والشخصية.

• التعليم داخل الحرم الجامعى On - Campus Education

فى هذا النوع من التعليم، يشارك الطلاب فى نشاطين تعليميين أسبوعيا: ورشة عمل لمدة أربع ساعات يقودها الأستاذ، وجلسة تعلم جماعية تستغرق أربع أو خمس

ساعات. ومجموعات التعلم تتكون من ثلاثة إلى خمسة طلاب. كما أن هذه المجموعات تصقل قدرات الطلاب للتعاون. ويتولى أساتذة الجامعة قيادة أنشطة مجموعات التعلم، بالإضافة إلى النتائج والعمليات، من خلال مراجعة الأنشطة المختلفة للمجموعات.

• التعليم عبر البريد الإلكترونى **Online Campus Instruction**

الطلاب الذين يكملون برامجهم الأكاديمية عبر البريد الإلكترونى يشاركون فى هذا النوع وفق الزمان والمكان المناسبين لهم. وقامت الجامعة أيضا بتطوير شكل تعليمى جديد أسمته Flexnet، وهو عبارة عن طريقة مهجّنة hybnid لتقديم التعليم، تجمع بين التعليم داخل الحرم الجامعى Campus، والتعليم عبر البريد الإلكترونى Online.

التركيز على التطبيق والتوافق **Application and Relevance**

تشير الأدبيات التربوية إلى أن الكبار يتعلمون على نحو أفضل، عندما يكون هناك توافق وتطابق بين المعرفة الجديدة وخبرة المتعلم. فالممارسات التى تشجع التأمل والتطبيق تقوم على افتراض مؤداه أن خبرة المتعلم توفر السياق أو الإطار Context الذى يستطيع المتعلم من خلاله تكوين معنى من المعلومات الجديدة. كما أن هذه الخبرة تجعل التعلم مناسبا للمتعلمين، وتزيد الترابط الوجدانى بالمادة الدراسية. مما يزيد من احتمالية أن يستجيب المتعلمون بأسلوب عميق لعملية التعلم. وفى مقررات جامعة فونكس Phoenix، تتلاحم خبرات الطلاب السابقة والظروف الحالية مع المادة الدراسية أثناء المناقشات الصفية، وفى واجبات التعلم الفردية والجماعية. ويعلن الطلاب عن قدرتهم على التطبيق العملى ـ اليوم التالى مباشرة ـ لما تعلموه فى الليلة البارحة فى قاعات الدرس.

بناء الكفاءة المهنية **Professional Competence**

حددت قيادة جامعة فونكس Phoenix خمسة أهداف عريضة للتعلم، تكون دليلا لعمليات تطوير المناهج، والتعليم، وتقييم التعلم، وتقويم البرنامج، والتحسين. وأول هذه الأهداف: «الكفاءة المهنية والقيم»، الذى يرتبط بمحتوى البرنامج ونظام

المقرر. وترغب جامعة فونكس Phoenix من خريجيها اكتساب مستويات المعرفة النظرية والعملية المناسبة لمستويات الدرجات العلمية التى يحصلون عليها (بكالوريوس، ماجستير، دكتوراه). وترتبط الأهداف الأربعة الأخرى بتطوير الكفاءة فى العمليات العقلية والاجتماعية التى تساعد الخريجين على ممارسة وأداء وظائفهم بنجاح. وهذه العمليات هى: التفكير الناقد وحل المشكلات، والاتصال، واستخدام المعلومات، والتعاون.

ملامح أخرى للنموذج Other Features

• مناسبة الزمان والمكان

تُقدم جامعة فونكس برامجها فى زمان ومكان مناسبين للعاملين الكبار. فالدروس تحدث ليلاً فى معظم الأحوال، وفى نهاية الأسبوع، وحسب رغبة الدارسين الكبار. وتحرص قيادة الجامعة على إقامة قاعات الدراسة ومراكز التعلم فى مواقع استراتيجية يسهل على الدارسين الوصول إليها. والتيسيرات الجامعية، التعليمية والإدارية، منصوص عليها فى الطبقة (أ)، وتستغرق من خمس إلى عشر سنوات. وهذا النظام يسمح للمؤسسة الجامعية بالاستجابة والتوافق مع التغيرات السكانية.

خدمات الطلاب الكبار Adult Student Services

ارتأت جامعة فونكس Phoenix أن الطلاب الكبار يتطلعون إلى خدمات أكبر وأفضل مما يُقدم للطلاب الصغار. كما يتطلعون إلى اهتمام أكبر من جانب الجامعة بهم. والخدمات تُقدم لهم عبر التليفون أو البريد الإلكترونى، أو بطريقة مباشرة (وَجْهًا لوجْه). فعلى سبيل المثال، بدلا من ذهاب الطلاب الكبار إلى الحرم الجامعى لشراء الكتب، يتم إرسال الكتب والمواد التعليمية إليهم عبر الإنترنت، أو تُرسل مباشر إلى منازل الطلاب.

والطلاب الذين يتلقون تعليمهم بجامعة فونكس عبر التليفون والبريد الإلكترونى يتمتعون بالخدمات نفسها، مثل نظرائهم الطلاب الذين يتلقون تعليمهم داخل الحرم الجامعى. وتحرص الجامعة على تحقيق الجودة وتوفير الخدمات الطلابية لضمان نجاح

الطلاب الذين يتلقون تعليمهم عبر التليفون والبريد الإلكترونى. ويدور محتوى البرامج التعليمية المقدمة إليهم حول الاحتياجات والقدرات الخاصة للطلاب، كل فى مجاله وعمله.

بنية إدارة الجامعة The University's Faculty

تحرص قيادة جامعة فونكس Phoenix منذ تأسيسها حتى اليوم على توفير بنية إدارية تدعم رسالة الجامعة. ونتيجة هذا الاهتمام تمخض عنها نموذج يضمن تحقيق الأدوار الرئيسة للجامعة. وهذا النموذج يجسد ما يُطلق عليه بالأسلوب غير الجمعى disaggregated.

لماذا نموذج بنيوى مختلف؟

فى ضوء البحوث الميدانية التى أُجريت فى أوائل فترة السبعينيات من القرن العشرين، أوضح جون سبيرلنج John Sperling، مؤسس الجامعة، أن قاعة الدرس المملوءة بالدارسين الكبار تُعتبر مكانا مميزا عن القاعة التى تضم دارسين من ١٨ـ ٢٢ سنة. إذ وجد أن الدارسين الكبار توقعاتهم مختلفة تجاه التعليم الذى يتلقونه، مقارنة بالتعليم الذى يتلقاه الدارسون الصغار فى موقف تقليدى. وفى ضوء نتائج البحث الذى أجراه مجلس الكلية، اتضح أن أكثر من (٨٠٪) من الدارسين الكبار يعودون للتعليم؛ بسبب رغبتهم الحصول على تعليم متقدم يخدمهم ويفيدهم فى حياتهم المهنية والوظيفية.

ومن منظور تعليمى، فإن الأمر يرتبط بأهمية التعليم من الناحية العملية. وهذا لايعنى أن الدارسين الكبار لا يجدون فائدة أو رغبة فى الدراسة النظرية؛ خاصة أن الجانب النظرى يفيدهم فى فهم الأحداث والمواقف الخاصة بالقطاع المهنى، ويساعدهم فى التنبؤ بنتائج تدخلاتهم وهم لا يتوقعون تعلم الجانب النظرى فى إطار الممارسة والتطبيق.

ونتيجة لذلك، يُظهر الدارسون الكبار حداً أدنى من الصبر تجاه المعلمين، الذين ليست لديهم الخبرة على مواجهة مثل هذه المواقف. وهذا الأمر مهم للغاية، لأن الدارسين الكبار، وبسبب اختيارهم مواصلة التعليم على نفقتهم الخاصة، ينظرون إلى الخدمات التعليمية التى تقدم لهم، فى إطار فائدتهم لهم فى حياتهم الوظيفية

والمهنية. وهذا ليس معناه تقديم التعليم للدارسين الكبار بطريقة سهلة. فالجامعة لكى تجتذب الدارسين الكبار وتحتفظ بهم، مطالبة بتقديم تعليم يرتبط باحتياجاتهم الذاتية، وبالاحتياجات التعليمية للمؤسسة التى يتعلمون فيها.

ووجد جون سبيرلنج John Sperling، مؤسس الجامعة، أن أساتذة الجامعة الذين يستهويهم الدارسون الكبار، يحرصون على إعداد الدارسين بطريقة متقدمة، ويزودونهم بالخبرة المهنية العملية التى تيسر ربط النظرية بالتطبيق. كما لاحظ سبيرلنج Sperling، فى ضوء المقارنة بين نتائج التعلم، وعدم وجود تباين بين النتائج. وتوصل فى نهاية ملاحظاته أن المؤسسة التى تستهدف خدمة الدارسين الكبار تحرص على استخدام نموذج ابتكارى، يضم كل هذه الرؤى لصالح المؤسسة والدارسين الكبار على حد سواء.

مضامين نموذج المؤسسة: أدوار المؤسسة والعاملين فيها

تشير البيانات الخاصة بالنتائج إلى أن التعليم الذى يضم ممارسين مهنيين يُعتبر طريقة فاعلة لتعليم الدارسين الكبار. واستخدام هذا النموذج يتطلب قيام جامعة فونكس بتطوير العمليات وتدعيم البنى Structures الموجودة لضمان الوفاء بأدوار المؤسسات التعليمية.

والأدوار التى يضطلع بها أعضاء هيئة الدارسين فى مؤسسات التعليم العالى تتمثل فى: البحث والتدريس، والقيام ببعض الأنشطة مثل التعليم الصفى والتقويم، وإرشاد الطلاب، والمشاركة فى الإدارة الأكاديمية، وخدمة المجتمع خارج الجامعة. ومعظم الكليات والجامعات تترك مسئولية تطوير وضبط محتوى المنهج لأعضاء هيئة التدريس. ويُفترض أن كل أعضاء هيئة التدريس مطالبون بهذه الأدوار. حتى لو كان ممكنا، يشير الواقع إلى أن كل عضو من أعضاء هيئة التدريس تجذبه هذه المهام والأدوار طواعية أو كراهية. وهذه التجزئة Unbundling لأدوار أعضاء هيئة التدريس تحدث بصفة طبيعية.

ويحرص أعضاء هيئة التدريس على الاضطلاع بأدوارهم الوظيفية والمهنية بعد تحديد الجامعة أهداف العملية الأكاديمية، وتحرص جامعة فونكس Phoenix على تجزئة العملية الأكاديمية، وتحديد مسئولية كل عملية منها.

اختصاصات أعضاء هيئة التدريس المتفرغين

تحرص جامعة فونكس Phoenix على استخدام كادر من أعضاء هيئة التدريس المتفرغين، ويقضى هؤلاء الأساتذة الجزء الأكبر من وقتهم فى أداء أنشطة تعليمية. ويحرصون على ضمان الجودة الأكاديمية، ويقدمون التوجيه والدعم لأعضاء هيئة التدريس قليلى الخبرة بالعمل الجامعى، كما يشاركون فى اختيار أعضاء هيئة التدريس الجدد، وتدريبهم، والمشاركة فى الأنشطة الخاصة بالإشراف والرقابة على المناهج، والمشاركة فى مجالس البرامج الأكاديمية.

علاوة على ذلك، يتولى هؤلاء الأساتذة المتفرغون قيادة العمليات الأكاديمية المختلفة، والإشراف المستمر على المناهج والجودة التعليمية. وقد يكون من المفيد وصْف فلسفة الجامعة تجاه الأساتذة غير المتفرغين. فقد أدى الاعتماد على هؤلاء الأساتذة غير المتفرغين فى التعليم والأدوار القيادية بالجامعة إلى تغيير الجامعة نظرتها لهؤلاء الأساتذة من مجرد أساتذة، يعملون بعض الوقت إلى أساتذة لا يمكن الاستغناء عنهم. فجامعة فونكس Phoenix، على سبيل المثال، تراجعت عن استخدام مصطلح «احتياطى» أو «مساعد» adjunct للأساتذة المتفرغين. فأعضاء هيئة التدريس، المتفرغون وغير المتفرغين، يكملون بعضهم البعض، ويشاركون جميعهم فى عمليات التقويم والتطوير.

الإشراف والرقابة على المناهج Curricular Oversight

جرت العادة أن تُترك مسئولية الإشراف والرقابة على المناهج والبرامج الأكاديمية للأساتذة المتفرغين، أصحاب الخبرة والمعرفة الحديثة. وقيل أن ذلك يضمن تماسك عملية تصميم وبناء البرنامج، بالإضافة إلى مناسبة وصحة المتطلبات والأهداف والنتائج. وجرت العادة أيضا أن تُترك هذه العملية للجان المناهج، التى يشترك فيها ممثلون عن أعضاء هيئة التدريس. وفى جامعة فونكس Phoenix، يُعتبر مجلس البرنامج الأكاديمى بديلا للجنة المناهج. ويتم تكوين مجلس لكل برنامج أكاديمى فى الكلية. وتضم هذه المجالس أربعة أساتذة متفرغين على الأقل، وأربعة من قيادات الجامعة فى مجال التعليم واختصاص المناهج. كما يتم اختيار اختصاصيين إداريين للعمل كمستشارين فى العمليات والقضايا الإدارية.

تصميم وتطوير المقررات الدراسية

فى الجامعات التقليدية، جرت العادة أن يكون عضو هيئة التدريس مسئولا عن تصميم محتوى المقرر والمناهج التى يقوم على تدريسها. ويصدق هذا بصفة خاصة على أعضاء هيئة التدريس المتفرغين، حيث يحددون أهداف ومحتوى المقرر. وبالنسبة لأعضاء هيئة التدريس غير المتفرغين، لابد أن تتأكد الجامعة من مسايرة محتوى المقرر للمعارف الحديثة. لذلك، يتم اختيار فرق عمل تضم أساتذة متفرغين وأصحاب الخبرة، لمراجعة كل المقررات التى يتم تدريسها فى جامعة فونكس. ويتمتع أعضاء هيئة التدريس بجامعة فونكس Phoenix بالقدرة على ربط الأساس النظرى للمقرر بالواقع الوظيفى والمهنى.

وتتعاون فرق تطوير المنهج مع مدير تطوير المناهج المختص بمراجعة عملية التوثيق، ومع المصمم التعليمى المختص بمراجعة مدى مسايرة خرائط المقرر لأهداف البرنامج وأهداف الجامعة. كذلك يتم تدوين بعض الملحوظات التى تساعد فى إعداد أعضاء هيئة التدريس الذين يقومون على تدريس المقرر. وتقوم فرق التطوير أيضا بتحديد ووصْف الخواص الأكاديمية والمهنية، التى يجب توافرها فى عضو هيئة التدريس الذى يقوم على تدريس المقرر.

ووحدات المقرر ليست آيات قرآنية. بمعنى أن هناك خط عرض Latitude لعضو هيئة التدريس لممارسة الحكْم الأكاديمى. وله الحرية فى زيادة الواجبات الأكاديمية أو تغييرها، وإضافة أنشطة تعليمية ليست مدونة فى المذكرات التدريسية. والمطلب الأساسى أن المقرر لابد من تدريسه وتقييمه فى إطار الأهداف المحدودة، من جانب فريق الجامعة والكلية عند مستوى أكاديمى معيّن.

التدريس Teaching

كما ذُكر آنفا، تتْبع جامعة فونكس نموذجا تعليميا تعاونيا وتيسيريا. ولهذا السبب، ولأن معظم الأساتذة فى جامعة فونكس متفرغين للتدريس، فإن الجامعة تحرص على انتقاء واختيار أفضل العناصر للتدريس.

وللتأكد من توافُر العناصر الجيدة، يخضع المتقدمون للعمل بجامعة فونكس

لعملية تقييم شاقة. وتبدأ هـذه العملية بالاضطلاع على السيرة الذاتية، للوقوف على مدى توافر الشروط التى تفرضها الجامعـة على العضو المتقدم للعمل فيها، وأول هذه الشروط الحصول على الدرجة العلمية من مؤسسة تعليـمية معترف بها محليا وعالميا، ولا يقل عن خـمس سنوات خبـرة فى العمل الجامـعى، سنتان مـنها للحصـول على درجة الماجستيـر. كذلك لابد أن يخضع المتقدمون لاختبـار فى التدريس، حيث يقوم المتـقدم بإلقـاء محاضـرة أو درْس إلى لجنة استـماع مـشكلة لهذا الـغرض. وتتمـثل الخطوة التاليـة فى إجراء مقـابلة شخصيـة مع المتقدم، للتـأكد من حداثة المعـرفة لدى المتقدم، خاصة فى المجال لذى سيقوم بتدريسه.

وبعد ذلك، المتـقدمون مطـالبون بإظهار قـدرتهم على تيسـير التعلم فى خـبرة أو تجربة تقييمية، يخضع خلالها المتـقدمون للملاحظة والتقويم من جانب أساتذة قدامى فى الجامـعة. عـلاوة على ذلك كل أعضاء هيـئة التـدريس عليهم استـكمال تدريب كجزء من عملية التأهيل للعمل فى الجامعة، مقرر يستغرق أربع جلسات، عن طريق شبكة الاتصال الدولية، ووحدات تدريبية.

وتستـهدف هذه التجـربة تقديم ممارسة جـيدة ومناسبـة للعمل فى الجامـعة، ويتم تقديم أيضـا محتـوى وتدريب إضافى فى مجـالات، مثل: الممارسة والنـظرية لتعليم الكبار، مـهارات التيسـير، إدارة فرق التـعلم، التقويم، التـقييم، القيـادة، الإجراءات الإدارية، مكتبـة الجامـعة. ويتم تطوير وحـدة التـأهيل بالجـامعـة بواسطة فـريق من الأسـاتذة المتـفـرغين، من أربع مناطق تابعـة للجـامـعـة، ممثلين عن الإدارة المركـزية، والشئون الأكاديمية، ومستشار التصميم التعليمى.

وأعضاء هيئة التدريس الذين يجتازون هذه العـملية، عليهم الحصول على موافقة لتدريس مـقررات بعينها تقـدمها الجامـعة. ويقوم عمـيد الكلية بتـقييم الخبـرة المهنية والأكاديمية للمتقـدم. والخطوة الأخيرة لعضو هيئة التدريس المرشح لـلعمل بالجامعة هى المشاركة فى ورشة عمل يقودها عضو هيئة تدريس قديم.

وتتاح فـرص التدريب والنمو المستـمر لكل أعضاء هيـئة التدريس بالجامـعة، من خـلال اللقاءات والورش التـدريبـية، سـواء داخل الجامـعـة أو عبـر شبكة الاتصـال

الدولية. كما يحصل عضو هيئة التدريس بالجامعة على دليل الكلية، تتضمن المستويات التى يجب أن يصل إليها عضو هيئة التدريس، حتى يضمن استمراره فى الجامعة، وكذلك السياسات والإجراءات والتوقعات الخاصة بالجامعة.

المنح الدراسية والمعرفة

جامعة فونكس Phoenix مؤسسة تعليمية، اهتمامها تقديم التعليم المهنى للعاملين الكبار. وإذا كان البحث الأكاديمى ليس مطلبا أساسيا للعمل بهذه الجامعة، إلا أن الجامعة ارتأت أن الوفاء بالجوانب الأساسية لمهمة الجامعة وأغراضها يتطلب من الجامعة الاهتمام بالأنشطة التعليمية على اختلاف أنواعها. وباعتبار الجامعة مؤسسة تخدم قطاعا بعينه، وتستخدم النموذج غير التجميعى. فإن ذلك يفرض عليها استخدام أسلوب مختلف للمنح الدراسية عما هو متبع فى المؤسسات التقليدية.

وعلى عكس الرؤى التى ترى أن الكلية التى تضم أعدادًا كبيرة من العاملين فيها يصعب عليها المشاركة فى أنشطة معرفية واستكشافية، فالتجميع الحديث للأنشطة المعرفية لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة يُفنّد هذه المزاعم. وبدأت الجامعة ميكنة الملفات الخاصة بأعضاء هيئة التدريس بها، وساعد ذلك على تجميع التقارير الخاصة بالأنشطة الأكاديمية والمهنية التى يشارك فيها أعضاء هيئة التدريس. وتشير نتائج المسح الخاص بالأساتذة المتفرغين إلى تجدد المعرفة باستمرار داخل الكلية.

علاوة على ذلك، يُعتبر مركز العلماء بالجامعة مركزا مباشرا يستهدف إثراء عملية تبادل الأفكار البحثية والمصادر بين الأساتذة وطلاب الدكتوراة. وتعتبر قاعات الأساتذة همزة وصل لتبادل الممارسات الجيدة، فى مجال التعليم وغيره. وهذا المركز يستهدف أيضا نشر المعرفة وتقديم المشورة لأساتذة الجامعة لنشر أبحاثهم، وهذه المحاولة الجديدة مازالت فى مراحلها الأولى.

تقييم المؤسسة والنتائج: ضمان الجودة باستمرار

خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين، أحدثت جامعة فونكس Phoenix استثمارات مهمة فى مجال تطوير والمحافظة على الإمكانات البحثية. هذه النظم تقيس وتُقوّم فاعلية الجامعة فى تحقيق الأهداف وتحسين العمليات داخل الجامعة

ومؤسساتها. وصدر القانون أو المرسوم الخاص بجهود التقويم والتقييم داخل الجامعة فى الثمانينيات من القرن العشرين. ويقوم هذا المرسوم على بندين، تمت مراجعتهما فى أوائل التسعينيات من القرن العشرين: نظام إدارة الجودة الأكاديمية (AQMS)، مركزا على أداء نظم الدعم التعليمى، لأعضاء هيئة التدريس. والمنهج، والخدمات الطلابية، ونظام تقييم نتائج تعلم الكبار (ALOA)، مركزا على قياس تعلم الطلاب فى المجالين المعرفى والوجدانى.

ونظم التقييم هذه جعلت عامة الناس يعترفون بجامعة فونكس خلال العقد الأخير من القرن العشرين؛ مما دفع بالجامعة إلى التجديد المستمر فى هذا المجال، من خلال «إعادة هندسة» عمليات التقييم داخلها خلال العامين الأولين من الألفية الثالثة.

اختلاف الرؤى والتقدير

ينظر البعض إلى جامعة فونكس Phoenix على أنها تهديد لمؤسسات التعليم العالى الموجودة فى المجتمعات المحلية المحيطة بها. ويرجع هذا الخوف إلى الاعتقاد أن الجامعة تركز على قطاع سكانى، مختلف كل الاختلاف عما تركز عليه مؤسسات التعليم العالى. كما أن الأموال والموارد التى تنفقها الجامعة لاجتذاب طلاب جدد تُعتبر تهديداً آخر، خاصة مع الزيادة المطردة فى أعداد الدارسين الكبار بالجامعة.

وجامعة فونكس تقدم خدمات اجتماعية واقتصادية، من خلال المساعدة على الوفاء بالاحتياجات التعليمية للدارسين الكبار دون التأثير على نظام التعليم العالى القائم. وكمؤسسة استثمارية، ومتمركزة حول الكبار، لا تعتمد الجامعة على الموارد والمصادر التعليمية للولايات، لكنها تقدم ميزات وخواصا اقتصادية. من هذه الميزات والخواص:

أ) لا تمس الملكية المحلية والضرائب على الدخل، وتترك الأمر للولايات والحكومة الفيدرالية.

ب) تركز على رأس المال الخاص للحصول على المعونات اللازمة لها.

جـ) أنها ليست مؤسسة تجارية بما تعنيه الكلمة من معنى.

علاوة على ذلك، تسهم الجامعة فى اقتصاديات الولاية عن طريق توفير الفرص التعليمية للكبار لزيادة معارفهم وصقل مهاراتهم، وليكونوا فى النهاية مواطنين منتجين.

ومع تركيز الجامعة على البرامج المهنية، فيما يلى بعض المجالات التى يمكن أن تفيد المجتمعات والقطاعات التى تخدمها جامعة فونكس Phoenix:

* التحق ما يقرب من ربع المقيدين بالجامعة عام ٢٠٠١ ببرامج وتخصصات يعانى منها المجتمع القومى، مثل نظم المعلومات والتكنولوجيا، إعداد وتأهيل المعلم، العلوم الصحية والتمريض، الإرشاد والخدمات الإنسانية.
* منذ تأسيس جامعة فونكس عام ١٩٧٦، تخرج (١٢٥,٠٠٠) طالب فى الجامعة. وفى عام ٢٠٠٠ تخرج ما يزيد عن (٢٥,٠٠٠) طالب، وصاروا جزءاً من القوى العاملة بالولايات المتحدة.
* ما يقرب من (٦٥٪) من الطلاب المقيدين بجامعة فونكس فى برامج تعليمية لمدة عامين أو ثلاثة أو أربعة أعوام دراسية، وداخل الجامعة نفسها، أو عبر البريد الإلكترونى، سوف يكملون دراستهم، رغم ضغوط العمل والأسرة والمجتمع.
* تظهر جامعة فونكس مستوى عاليًا من المشاركة والتخرج من جانب الأقليات فى المجتمع الأمريكى. إذ أن (٤٠٪) من طلاب جامعة فونكس من الأقلية الوثنية.
* أعرب (٩٤٪) من طلاب جامعة فونكس عن استعدادهم لحث زملاء العمل على الالتحاق بهذه الجامعة.
* أعلن (٤٣٪) من خريجى جامعة فونكس أنهم حصلوا على ترقية فى عملهم بعد استكمالهم الدراسة بالجامعة.

وبالنسبة للدارسين الكبار، ساهمت الجامعة فى تغيير نمط حياتهم؛ فالخبرة التعليمية المقدمة لهم ساهمت فى إثراء طرائق جديدة لرؤية العالم، وتحسين جودة الحياة، كما ساهمت فى نجاح مؤسساتهم التى يعملون فيها، نتيجة زيادة معارفهم وحداثتها، وتطبيقها فى عملهم. كما ساعدتهم الجامعة فى حل المشكلات الوظيفية والحياتية، والمساهمة فى تنمية وتطوير مجتمعاتهم المحلية والمجتمع القومى الأكبر.

الفصل الرابع عشر

تغيير اللاعبين فى مجتمع المعرفة*

بيترسكوت

يستهدف هذا الجزء الخاص بتأثير العولمة على التعليم العالى تقديم وصْف تعديلى أو تنقيحى revisionist. فهناك اعتقاد سائد لدى غالبية الأفراد أن المؤسسات التى تجد رواجًا لها فى مجتمع المعرفة، مثل الجامعات البحثية، ومستشارى إدارة المعرفة، يمكن أن تلعب دورًا بارزًا فى هذا المضمار. بالتالى ليس أمام الجامعات التقليدية خيار سوى تقليد هذه المؤسسات. وهذه الرؤية مرجعها التباين بين الاقتصاد الجديد فى التعليم العالى المرتبط باتفاقية الجات وتكنولوجيا المعلومات والاتصال وبين الاقتصاد الليبرالى الجديد من ناحية، والممارسة الأكاديمية والمعرفية التقليدية من ناحية أخرى. هذه النظرة قد تكون مضلّلة. ومع ذلك، فهذه الرؤية المنقحة لاتعنى أن الجامعات فى استطاعتها عمل ما يجعلها راضية ومعتدة بذاتها. لكن الأمر يتطلب من الجامعات أن تكون مصدراً للتغيير الجذرى بطرائق غير تقليدية.

ومهما كانت الرؤية، فإن التعليم العالى (التدريس والبحث) عبارة عن سلعة تُباع وتُشتَرى. وتأثير هذه الرؤية على سياسة التعليم العالى يقتصر على صناعة السياسة القومية. إذ يتم التأكيد مراراً على المصالح الخاصة بدلا من السلع العامة، فى ضوء النتائج التى يحققها التعليم العالى.

ونتيجة لذلك، يسهم الطلاب بطريقة مباشرة، باعتبارهم المستفيدين من التعليم العالى فى المقام الأول، فى تكلفة توفير التعليم العالى، عن طريق المصاريف الدراسية التى يدفعونها. وخلال فترة التسعينيات من القرن العشرين، تجاوزت المتاجرة بالتعليم العالى الحدود القومية، مع ظهور العولمة الليبرالية الجديدة. والدرس الذى استوعبه كثير من القيادات السياسية والجامعية هو التخلى عن اعتبار التعليم العالى سلعة عامة تابعة للقطاع العام، وانتهاز الفرصة لعولمة التعليم العالى، والاستفادة من اقتصاد المعرفة العالمى. ومن تفوته الفرصة يهمش ويتجاوزه قطار العولمة، وتسيطر

* ترجمة د. السيد البهواشى.

الأيديولوجية الليبرالية الجديدة على تأثير العولمة فى التعليم العالى. ولابد من مجابهة هذه الظاهرة، إذا أريد إضفاء العالمية على الجامعات، بدلا من إقحام الجامعات فى السوق العالمى.

الجامعة فى مجتمع المعرفة

المناقشة الخاصة بتأثير العولمة على الجامعة تتسم بالاستعجال Urgency والسذاجة naivety، والأولى تتضمن الثانية؛ فالاستعجال يظهر فى إطار السياسة. والخوف أن الجامعة إذا لم تستجب وتتوافق ـ الأمس واليوم والغد ـ لتحديات العولمة، حينئذ تكون مجرد مؤسسة تقليدية بعيدة عن التطورات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. والسذاجة naivety تظهر فى إطار المفاهيم والتحليلات. وغالبا ما يتم تناوُل العولمة والجامعة على أنهما لوح طباعىّ مقولب Stereotype؛ فالعولمة على أنها العالم الجديد الذى يتضمن الأسواق والاتصالات الدولية، والجامعة على أنها مؤسسة تقليدية. هذا الاستعجال وتلك السذاجة يحتاجان إلى نقاش مطنب.

العولمة ليست مجرد ظاهرة تكنولوجية.. العولمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بتطوير مجتمع المعرفة. وبالتغيرات فى إنتاج المعرفة. والخوف أن يتم استخدام هذا المصطلح بصورة واسعة؛ لدرجة تعنى كل الأشياء لكل الأفراد، كما هو واضح من وفرة نصوص ومصطلحات مختلفة، مثل: مجتمع المعلومات، المجتمع المعلوماتى، مجتمع الاتصالات وغيرها. ومع ذلك، رغم تنوع المعانى ووفرتها، فإن هذا المصطلح مازال يُستخدم فى إطار شامل أو كلى. ولابد من تأكيد عدم ثبات فكرة مجتمع المعرفة والمتناقضات التى تحتويها.

وهناك ثلاثة معان تتضمنها هذه الفكرة.

* **المعنى الأول** مشتق من البعد التكنولوجى، ويركز على تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والمجتمع العالمى، والأسواق المالية، والإعلام العالمى، باختصار عالم الـ CNN والكوكاكولا. وينعكس هذا التحول فى التغيرات الأساسية فى نماذج الإنتاج: فكرة مجتمع ما بعد الصناعة، ويمتد إلى المجالات السياسية والثقافية. ونتيجة لذلك، يحل التفاعل المباشر بين المستهلكين والأسواق الشعبية الأشكال السابقة

للمشاركة الجماعية بين المواطنين والدولة، ويرتبط بذلك فكرة العولمة، فكرة أن الدول وجدت ضالتها الكبرى.

* **المعنى الثانى** المرتبط بفكرة مجتمع المعرفة، وهو معنى مشتق من التحليلات الجيوسياسية التى تلتقط فكرة العولمة. وفكرة العولمة يجسدها كتاب فيليب بوبت Philip Bobbitt «الحرب، السلام، مجرى التاريخ»؛ إذ يرى بوبت أن كثرة الحروب أحدثت تحولات أساسية فى الدول والنظام العالمى. وفى نظره، فإن الحرب الطويلة «١٩١٤ ـ ١٩٨٠» التى كسبها الغرب بسبب تفوقه فى نظم المعلومات، أدت إلى تفتيت الدول إلى دويلات.

* **المعنى الثالث** يضرب بجذوره فى التحليلات الاجتماعية والثقافية. وتتأرجح هذه التحليلات ما بين التفاؤلية التى يتزعمها مانويل كاستل Manuel Castell فى كتابه «عصر المعلومات»؛ حيث يؤكد فيه أن التكنولوجيا هى الدافع الرئيس للتغير الاجتماعى والثقافى، والأوصاف الداكنة التى يجسدها ألترش بيك Ultrich Beck فى كتابه «مجتمع فى خطر»، الذى يؤكد فيه تجزئة المعنى الاجتماعى وتذرية atomization الخبرة الفردية. ويرتبط بهذا التحالف تلك السيناريوهات المتوهجة من جانب أنصار البيئة، والاحتجاجات الثورية ضد العولمة. ويرتبط بذلك أيضًا ـ ولو بصورة غير مباشرة ـ أفكار التبخر الفكرى لعصر ما بعد الحداثة.

ومن الصعب التعمق والغوص فى هذه المعانى لمجتمع المعرفة فى ورقة كهذه معنية أساسا بتوضيح تأثير العولمة على الجامعة. لكن هناك أمرين جديرين بالاهتمام. أولاهما أن فكرة مجتمع المعرفة مسألة محيرة؛ فهناك حاجة إلى معرفة سيناريوهات وسياسات التطوير المستقبلى للتعليم العالى. ولن تتحقق هذه المعرفة إلا بعد فهم اتجاه التغير الاجتماعى، وفى الوقت نفسه، لن يوجد الأساس الصلد، لعدم وجود فهم مشترك. والأمر الثانى أن الجامعة متضمنة فى هذه المعانى المختلفة لمجتمع المعرفة، على سبيل المثال، هى مصدر العلوم الأساسية التى تُشتق منها تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، وكمؤسسة قومية مُهدَّدة من جانب الولايات الثرية، التى تحرص على

تطوير الجامعة بها، وتجابه تحديات سوق العولمة، وكمؤسسات مهمة تُشتق منها أيديولوجية بديلة.

نماذج جديدة لإنتاج المعرفة

هذه الخاتمة تلقى دعمًا من تحليل التغيرات فى إنتاج المعرفة. ويرى مايكل جبونز Michael Gibbons وآخرون (١٩٩٤) أن هذه التغيرات هى بمثابة تحوُّل من العلم ذات النموذج الواحد ـ البحوث يقودها الفضول العلمى داخل الجامعات ـ إلى المعرفة ثنائية النموذج، يتم توليدها فى إطار سياقات مفتوحة من التطبيق، ويتم توزيعها عبر الممثلين والبيئات، وتخضع للتقويم المعقد ونظم المحاسبية. وحاول مايكل جبونز وآخرون تطوير هذا الوصف لإنتاج المعرفة.

ويميز مايكل جبونز وآخرون (٢٠٠١) بين «سياق» العلم والأوصاف البنائية والاجتماعية له. هذا التمايز يمثل أحد الانتقادات الرئيسة لأوصاف نموذج واحد/ اثنين. كما حرص مايكل جبونز على تطوير بعض المفاهيم، مثل الساحة العامة agora ، التى تضم المجالات السياسية والثقافية واقتصاد السوق، التى تشكل الأساس للبحوث.

وهذه الورقة الخاصة بتأثير العولمة على الجامعة لا تسمح بالغوص فى المناقشات التى تستهدف توضيح التغيرات فى إنتاج المعرفة. لكن النتيجة التى يمكن استخلاصها من الأوصاف المتعلقة بنموذج واحد/ اثنين، أنه من العبث اعتبار هذه التغيرات دليلا على التحول من علم الاقتصاد القديم إلى العلم التطبيقى، والبحوث الفاعلة للاقتصاد الجديد. غير أن ذلك ليس هو الحادث فعلا، لسببين رئيسين: أولهما، أن كل نماذج وأُطر المعرفة تتلاحم معًا، وثانيهما أن النماذج الجديدة لإنتاج المعرفة لايمكن إرجاعها إلى البحوث المبرمجة فحسب؛ فبرامج البحث والتنمية R&D القومية ليست أمثلة جيدة لما يُسمى بالبحوث السياقية أو البحوث الاجتماعية. لذلك وكما هو الحال بالنسبة لفكرة مجتمع المعرفة، فإن أوصاف التغيرات فى الإنتاج العلمى لاتوفر الأساس لبناء سناريوهات آمنة حول التطوير المستقبلى للتعليم العالى. وكما هو الحال بالنسبة لمجتمع المعرفة أيضًا، فإن الجامعة ليست مكانا لإنتاج العلوم فحسب، لكنها أيضا المستغل الأساسى للملكية الفكرية، والوسيط لنتائج البحوث.

تتمثل الفكرة الرئيسة لهذه الورقة فى توضيح تأثير العولمة على التعليم العالى، بالإضافة إلى ظهور لاعبين جدد فى مجتمع المعرفة. وليس من السهل توضيح وتحديد الطريق الذى يجب أن تسلكه الجامعة، وكذلك تحديد هؤلاء اللاعبين الجدد. فالجامعات تجابه الآن بتحديات من جانب مؤسسات المعرفة، المنافسة. وهناك عدد لابأس به من المؤسسات المنافسة، مثل: مستشارى الإدارة (مراكز المعرفة التجارية)، وسائل الإعلام، مخططى السيناريوهات فى العمليات الرئيسة وغيرهم. ودرجة المنافسة مبالغ فيها، ومعظم المنافسين يعتمدون على الجامعات للحصول على القوى العاملة المتعلمة، ونظرًا لحاجة المنافسين للجامعات لإجراء البحوث التى تحتاجها مؤسساتهم، فإن وجود هؤلاء المنافسين لا يشكل تحديًا للجامعات، بل يعززون ويعضدون الجامعات. ومع ذلك، هناك ثلاثة منافسين للجامعات.

* **أول المنافسين** هو تطوير ما يُسمى بمؤسسات «التعليم عابر الحدود القومية». وتعتمد بعض هذه المؤسسات على الاتحاد العالمى للجامعات التقليدية، أو اتحاد الجامعات القومية العالمية، والمؤسسات العالمية مثل وسائل الإعلام وتكنولوجيات المعلومات. وبعض هذه المؤسسات منافس قوى للجامعات التقليدية، وتتخذ شكل الجامعات الإلكترونية التى تؤسسها الاتحادات العالمية.

والمشكلة ليست فى تطوير المفاهيم الفكرية والمحتوى، لكن فى تسويق وتوزيع هذه المنتجات، وجذب زبائن لها، ومحاولة الإفادة من تكنولوجيا المعلومات والاتصال. ومع ذلك، فالتحليل هذا غير مُقنع. إذ أنه أحادى البعد، حيث يعتمد على الوصف التكنولوجى لمجتمع المعرفة، ويتجاهل معوقات النقل الثقافى والجهود المحلية تجاه المعرفة العالمية (ومن ثم يقتصر فى أدائه على أنظمة ضيقة: الإدارة والأعمال التجارية، وتكنولوجيا المعلومات، وعلوم الكمبيوتر، وبعض مجالات العلم والتكنولوجيا)، ويخفق فى فهم التركيبات والسيناريوهات بين أشكال ونماذج التعلم المباشرة وغير المباشرة.

* **وثانى المنافسين** يتمثل فى الجامعات الخاصة الاستثمارية. وجامعة فونكس Phoenix مثال على ذلك.. هذه المؤسسات الخاصة لا تعبأ باللوائح العامة، وتتمتع بالحرية الكاملة فى إصدار لوائحها المنظمة للعمل داخلها. والتأهيل شرط ضرورى

فى المؤسسات الخاصة، والخصخصة تخفف العبء التنظيمى على الجامعات الخاصة. والجامعات الخاصة أيضا تحكمها المعايير الثقافية والمهنية والفكرية. كما أنها حرة فى إجراء البحوث والتدريس وتصميم المناهج بالطريقة التى تراها، ولا تزعجها الأنظمة لأنها تركز أساسًا على منتجات المعرفة.

لكن كثيراً من القيود المفروضة على مشروعات التعليم عابر الحدود القومية تُطبق أيضًا على الجامعات الخاصة الاستثمارية.

* **وثالث المنافسين** للجامعة التقليدية ينبع من تكاثُر الجامعات الاتحادية Corporate وتأخذ هذه الجامعات أحيانًا شكل أقسام تدريبية. وساعد على ظهور هذه الجامعات الاتحادية نمو الموارد البشرية، ويعكس تأسيس الجامعات الاتحادية أيضًا الاتجاه إلى تطوير القوى العاملة. ومن الأمثلة على ذلك إنشاء جامعة الخدمات الصحية القومية بالمملكة المتحدة. ومع ذلك، هذه الأمثلة وغيرها لا تشكل تحديا للجامعة التقليدية لسببين: أولهما أن الجامعات الاتحادية جليل اهتمامها تقديم دورات تدريبية ومقررات قصيرة، ولابد من توقيع عقود مع الجامعات التقليدية لتقديم مقررات معقدة. وثانيهما أن أنشطة الجامعات الاتحادية مكملة لأنشطة الجامعات التقليدية. على سبيل المثال، جامعة NHS ليست منافسة للمدارس الطبية، ولا لمدارس التمريض.

وعلى الرغم أن هذه الأنواع الثلاثة من المؤسسات المنافسة ـ المؤسسات عابرة الحدود القومية، الجامعات الخاصة الاستثمارية، الجامعات الاتحادية ـ ستكون أبرز ملامح التعليم العالى فى القرن الواحد والعشرين، لكنها لن تكون الملامح الوحيدة فى القرن ذاته. والسبب وراء ذلك أنه من الخطأ تناوُل فكرة مجتمع المعرفة أو التغيرات فى إنتاج المعرفة على أنها تحولات بسيطة.. استبدال نموذج للتقدم بآخر أعلى وأسمى منه. لذلك من الخطأ رؤية تطور الجامعة فى إطار ظهور المؤسسات المنافسة. ومن الضرورى تطوير وصْف دقيق، يركز على عملية التحول الداخلية وتعتبرها التحدى الخارجى (أو البديل).

تحديات أخرى: التهجين ومؤسسات المعرفة الفاعلة

لقد بات ضروريا البحث عن لاعبين جدد فى مجتمع المعرفة، داخل الجامعة

وخارجها. وهناك ظاهرتان جديرتان بالاهتمام: إحداهما داخل الجامعة، يُطلق عليها تهجين hybridization التعليم العالى، والأخرى خارج الجامعة، متمثلة فى تطوير مؤسسات بديلة للمعرفة، ومتضمنة تقاليد المعرفة المنافسة، وجذرية فى توجهها السياسى، وعصرية فى توجهها الفكرى.

وتهجين التعليم العالى يأخذ شكلين: أحدهما يكون جزءاً من عملية التطوير لنظم التعليم العالى المعاصرة. فالمؤسسات نضطلع بوظائف عدة، الكثير منها بعيد عن الأغراض الجوهرية للجامعة التقليدية، وهذه الظاهرة توصف بأنها رسالة قابلة للانتشار؛ لأنها عملية ليست مفروضة من خارج التعليم العالى على المؤسسات، لكنها عملية نابعة من الديناميكيات الاجتماعية والعلمية الداخلية للتعليم العالى.

هذه الوظائف الجديدة ـ نقل التكنولوجيا وإدارة المعرفة، التضامن الاجتماعى، التعلم مدى الحياة، معروفة لكل فرد. لكن من الخطأ اعتبار هذه الوظائف إضافات جديدة للتعليم العالى. فطبيعة التعليم والتعلم والمقررات الأكاديمية والبرامج البحثية قد تغيرت أيضا. فهناك الآن جبهات مفتوحة بين المجتمع والجامعة، والثقافة والاقتصاد. والتعلم عن طريق العمل والمجتمع واعتماد الخبرة السابقة، بالإضافة إلى الممارسات والظواهر المماثلة، كلها دليل على التدفقات الجديدة داخل التعليم العالى. لذلك عند الاستفسار عن اللاعبين الجدد، فإن الإجابة تكون «نحن اللاعبين الجدد»، الجامعات نفسها اللاعبون الجدد.

والشكل الثانى لتهجين التعليم العالى يكمن فى توسعة extension الشكل الأول.. إنه يكمن فى ظهور الأشكال التنظيمية الجديدة داخل الجامعة، التى توازى (وأحيانا تنافس) النماذج التقليدية للتنظيم الأكاديمى، مثل الكليات والأقسام. ولهذا التصنيف التقليدى جذور وأصول معقدة. فبعض الأجزاء تتمتع بعلاقات affinities أكاديمية، وتحكمها المجتمعات العلمية. وبعض الأجزاء الأخرى تعكس تقسيم العمل المهنى فى المجتمع الأكبر (ورغم أن هذه التجزئة للعمل ليست مفروضة على الجامعة من الخارج، إلا أن مدارس القانون والمدارس الطبية تلعب دوراً رئيسًا فى عملية التكاثر، وفى تعريف المهن).

ومن الصعب الادعاء بأن المؤسسات البحثية هى أشكال جديدة (خاصة فى أمريكا الشمالية). ومع ذلك فقد تغيّر التوازن الآن، فكثير من الوحدات التنظيمية داخل الجامعات لا تقوم على أى من المبدأين: العلاقات الأكاديمية أو تجزئة العمل

المهنى. لكن هذه الوحدات ذات علاقة بفرق المشروعات، وصممت وحدات السوق لاستغلال الملكية الفكرية داخل الجامعة، مكملين لبعضهم البعض. وعند الاستفسار مرة أخرى عن مكان التنظيمات الجديدة فى مجتمع المعرفة، تكون الإجابة مرة أخرى هى، نحن: الجامعات تضم كثيراً من التنظيمات الجديدة.

وتتمثل الظاهرة الثانية فى القدرة على إنماء تنظيمات معرفية فاعلة مغايرة للجامعات التقليدية، ولجامعات السوق الجديدة. وهذه التنظيمات تغاير الجامعات التقليدية لأنها تربطها (ونحن) بالصفوة الاجتماعية (أو بإعادة بناء الهرم الاجتماعى حسب تجزئة العمل فى مجتمع رأسمالى)، وبالمفاهيم المحددة للمعرفة. ونتيجة لذلك، فإن هذه التنظيمات المعرفية الفاعلة تتحدى أفكار الأدلة، والموضوعية، والتوازن، والحوار، التى تُعتبر أساسية فى الجامعة.

ومع ذلك، فإن هذه التنظيمات تتعارض مع جامعات السوق، باعتبارها المنافس الأساسى للجامعة العامة. وهذه التنظيمات ترفض كثيراً من المعطيات المألوفة فى الديمقراطية الاجتماعية، مثل: مادية الدافعية، وفاعلية الحوافز، والدافع للفاعلية، وحساب الكلفة والفوائد (التى يعتمد عليها تطوير جامعات السوق). وبينما ترفض هذه التنظيمات تلك المعطيات، فإن تحرص على الإفادة من تكنولوجيا الاتصال الاعلامى والشعبى.

والتنظيمات المعرفية الفاعلة activist تأخذ أشكالا كثيرة؛ مجموعات المجتمع المحلى، شبكات الاتصال الدولية. وهذه التنظيمات قد تكون أساسية ترفض ثقافة التحرير المرتبطة بجامعات الصفوة والثقافة الموازية للمنطقية rationality المرتبطة بعلوم وأساتذة أو منح الجامعة. وقد تكون تنظيمات، مثل السلام الأخضر green peace ، التى تؤمن بعدالة أن الاستخدام المنطقى للأدلة العلمية يعادل أو يفوق استخدام البنك الدولى أو هيئة المعونة الدولية. ولعل نظام الغذاء المعدل مثال جيد على أن الخبرة لم تعُد هى المخزون الرئيس للخبراء، لكنها صارت موزعة الآن. كذلك الدور الابتكارى الذى تلعبه هذه التحولات فى توليد المعرفة ومعارضتها لتوجهات العولمة، قد تشعر ببعض المسئوليات الأخلاقية التى تضطلع بها الجامعات منذ جيل مضى.

خاتمة

الجامعات والعولمة

ترجمة: د. السيد البهواشي

خاتمة

الجامعات والعولمة: بحثاً عن توازن جديد(*)

بعض الملاحظات عن العولمة

يؤكد مؤلفو كتاب «العولمة والجامعات» الصعوبات المرتبطة بمصطلح «العولمة» الذى يحمل تأويلات كثيرة، ويجد أصداءً وجدانية وعقلانية، لدرجة أصبح المصطلح معها مشكلة، والجامعات لابد أن يكون لها دور فى تطوير مفهوم جيد للعولمة، بمشاركة طلابها والمجتمع الذى توجد فيه. وكما يشير جون دانيال John Daniel (الفصل الأول) وكريس بروكس Chris Brooks (الفصل الثانى)، العولمة ليست شيطانا رجيما، وليست سبب كل المشكلات التى تعانيها البشرية، بحيث يتم تدميرها مهما كانت التكلفة. وفى الوقت نفسه، ليست العولمة الطريق الوحيد والمثالى نحو رخاء البشرية، بحيث يتم اقتفاء هذا الطريق عُميانا صُما بُكما. والعولمة، مع ذلك توجد جوانب سلبية يجب إصلاحها أو تغييرها. فعلى سبيل المثال، إطار العمل التحليلى يركز على الجوانب المالية، وليس بالدرجة نفسها من الاهتمام على الجوانب الثقافية والاجتماعية، مؤدية بذلك إلى تباينات بين الدول، مواطنى الدولة الواحدة. العولمة ظاهرة تثير مشكلات للبشرية، وفى الوقت نفسه تتيح الفرص للتطور، ظاهرة يجب دراستها وفهمها وإدارتها، حتى تؤدى إلى التداخل العالمى، وتحقق التقدم المطلوب لكل دول ومواطنى المعمورة.

وكما يشير جون دانيال Gohn Daniel إلى حالة الاقتصاد العالمى فى أوائل القرن العشرين المنصرم، العولمة ليست ظاهرة جديدة على المجتمعات والاقتصاد العالمى كما يعتقد البعض. وبالتالى العولمة ليست جديدة على الجامعات. وفى الواقع، كانت العولمة ـ ومازالت ـ جزءًا لا يتجزأ من الحياة الجامعية، منذ نشأة جامعة بولونيا Bologana ، وأساتذتها، ومنذ أن توافرت لهم الرعاية والحماية من الامبراطور فردريك باربروسو Friedrich Barbarosso للانتقال بحرية فى أوربا الوسطى.

(*) تأليف فرانسوا تافناس Francois Tavenas

وكذلك يشير جون دانيال John Daniel إلى البروفسيور إرازمس Erasmus الذى كان نشيطا فى كل الجامعات الكبيرة والشهيرة بأوربا فى عصره. وفى الوقت نفسه يشير دانيال إلى الطلاب الذين أنشأوا جامعة أكسفورد بعد طردهم من جامعة السوربون Sorbonne.. كل ما فى الأمر أنه لابد من تذكر الحراك الدولى للباحثين، ودور المجتمعات الدولية فى كل نظم المعرفة، ودور الصحافة الأكاديمية الدولية، والمؤتمرات الدولية فى نشر نتائج البحوث. كل ذلك يثبت بالدليل والبرهان أن ممارسة العولمة تأسست فى المجتمعات الأكاديمية.

ومع ذلك، فإن الجديد هو المدى الذى انتشرت خلاله ظاهرة العولمة؛ أى التداخل المتنامى لكل المجتمعات والقطاعات، والسرعة المتزايدة لحركة الأفكار والبضائع والأفراد وظهور ظاهرة القرارات المحلية التى لها تأثير عالمى، والتعقيد والشك المتزايد للعالم وميكانيزماته، بالإضافة إلى تأثير الإنترنت. كل ذلك يحتاج إلى فهم نتائج التطور حتى يمكن التوافق أو التكيف معه، وحتى يمكن السيطرة عليه، وتوجيهه فى اتجاه يؤدى إلى التقدم لكل الإنسانية.

واتجاه المنظومة الدولية نحو العولمة يثير نوعين من المشكلات للتعليم العالى: مشكلات ترتبط بالتدريس والبحث، أى بكيفية تكييف البرامج التدريسية والمجالات البحثية، ومشكلات مرتبطة بالتنظيم والسياسات والاستراتيجيات الخاصة بالتعليم العالى.

القضايا المرتبطة بالبرامج البحثية والتدريبية

هناك قضايا كثيرة يثيرها المؤلفون. ومع ذلك، سيتم التركيز على ثلاث قضايا فقط:

• **أولا:** المؤسسات التعليمية أمامها مهمة مزدوجة لتطوير ونقل المعرفة والقيم العالمية، وفى الوقت نفسه، المساهمة فى التنمية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات المحلية التى تخدمها وتدعمها. والتحدى الذى يواجه أى جامعة يكمن فى كيفية تحقيق توازن صحيح بين المهمتين المتناقضتين أحيانا. وجسامة التحدى تكمن فى كيفية تناوله فى سياق معرفى ذات أهمية كبيرة للتنمية الاقتصادية، وتعتبره الحكومات واللاعبون الاجتماعيون وسيلة ضمان المنافسة لأى دولة فى عالم معولم،

والجامعات بذلك واقعة تحت ضغوط متناقضة.. فمن ناحية العرف الداخلى الخاص بالمذهب الاشتراكى العلمى Scientific Communism، يشجع الجامعات على تطوير حرية الحركة للأفكار والأفراد عالميا. ومن ناحية أخرى، الحكومات والمجتمع، بحكم تحملها أعباء التمويل، تنتظر عائداً لهذا الاستثمار فى شكل إسهامات فى التنمية الاقتصادية المحلية. وفى السنوات المقبلة، تحقيق التوازن بين الأعباء العالمية والمحلية سوف يكون مآله صعبًا للغاية.

• **ثانيا**: عالم التعليم العالى مازال واقعا تحت طغيان النظم الرئيسة والفرعية العلمية، والمصطلح الذى استخدمه ميشيل جبونز Michael Gibbons (الفصل السادس) وأطلق عليه «أسلوب واحد» Mode One يساعد فى ضبط البنيات الداخلية للكليات والأقسام، وانتشار المعرفة (مجتمعات متعلمة، صحافة أكاديمية)، وممارسات التقدير والحكم (معايير الترقية، تنوير الأساتذة، الجوائز والتمايزات الأكاديمية)، وبرامج التدريس والبحث، ومع ذلك.. فإن المشكلات التى تواجه البشرية معقدة ومتداخلة. وكما يشير جبونز Gibbons وآخرون، هناك حاجة للتوافق مع «أسلوب اثنين» Mode two لإنتاج المعرفة، عن طريق إدخال بُعد متداخل النظم إلى الممارسات الآتية.

هذه الممارسات تشمل:

- البرامج الجديدة والبنيات ،المرنة والمتداخلة النظم والمتمركزة حول المشكلة (بنية القالب matrix المرن الذى اقترحها هانزفان جنكل Hans Van Ginkel فى الفصل الرابع تتوافق مع مثل هذا الأسلوب «اثنين»).
- البرامج الجديدة والأنشطة التى تتضمنها لإعطاء الطلاب فرصا أكبر للدخول فى أبعاد متداخلة النظم، وتدريبا يجعلهم فى توافق مع متطلبات العالم المعقد الذى يعيشون فيه.

• **ثالثا**: مهمة التعليم العالى تدريب القادة واللاعبين الاجتماعيين.. هؤلاء القادة واللاعبون الاجتماعيون مطالبون بالتعامل مع العالم المعقد، والمشكلات التى يثيرها، وهذا يتطلب فى الوقت ذاته تكييف البرامج بحيث تتواءم مع الإعداد الجيد لهؤلاء

الأفراد بما يمكنهم من مسايرة تحديات العولمة، ويجب أن تسعى البرامج إلى تطوير قدرات القادة واللاعبين الاجتماعيين التالية:

- تعلم كيفية التعلم.
- فهم القضايا العالمية.
- التفاعل مع الجماعات الاجتماعية المختلفة.
- اكتساب الفهم والقدرة على العمل فى البيئات الثقافية المختلفة.
- الاكتساب الفورى للقيم العالمية والمعرفة المهنية والوظيفية ذات الجودة العالية.

القضايا المرتبطة بالمؤسسات وبنياتها وسياساتها

العولمة لا تؤثر فى كل الجامعات فحسب، لكن تأثيرها بارز أيضا فى مجالات وأنواع كثيرة، مثل البنيات والإجراءات والسياسات المؤسسية.

وهناك ست نقاط بارزة، هى:

• **أولا:** الإنترنت ييسر الوصول إلى المعلومات والأدوار التقليدية لأستاذ الجامعة الذى كان فى يوم ما مصدر المعرفة، وكانت الجامعة المكان الوحيد لنقل هذه المعرفة، تأثرت إلى حد كبير بظهور تقانة المعلومات والإنترنت. ومن الصعب للغاية مقاومة التطور التقنى بل العكس، لابد من السعى لاستيعاب عالم الإنترنت والتوافق معه بطرق عديدة.

- إعادة تأكيد دور أستاذ الجامعة كموجه ومستشار ومرشد للطلاب فى التدريس والبحث وتحليل ونقد وتكامل المعلومات المتاحة على شبكة الإنترنت وغيرها.
- هذا الدور حيوى ويحتاج إلى تطوير.
- استخدام الإنترنت لنشر جودة المادة الأكاديمية بحرية يقتضى الوقوف على مدى مناسبة هذا الأسلوب للنظام العالمى الخاص بالتقييم الجماعى.
- استخدام الإنترنت وسيلة لزيادة التعاون بين الجامعات، وتيسير الشراكة البحثية الجديدة، لصالح جامعات دول الجنوب خاصة.

• **ثانيـا**: العولمة وإنتاج المعـرفة المتزايد يتطلب من الجامعـات زيادة برامج التعليم المستمـر. فالـتعليم المسـتـمر يجب أن يكون مـحـوراً أساسـيا فـى رسالة الجـامعـة. والإنترنت يوفر أداة فـاعلة لنشر معرفة حـديثة تفيد الطلاب والخريجـين فى التعامل مع التـغيرات والتـحديات المهنيـة. وهذا يتطلب الاسـتـفادة من الانتـرنت للاضطلاع بالمسئوليات على أكمل وجه.

والتعليم المستمـر مجال تجارى تنافسى أمام اللاعبين الجـدد فى التعليم العالمى، بما فيـها اللاعـبون الاجـتمـاعيون الجـدد على المشاركـة فى عمليـة التمـويل (الطلاب، الحكومـات، المؤسسـات التـجارية). ولابد من الاهتـمام بـوسائل تحـقيق الجـودة فى التعـليم العالى، وبالطرق التى تيـسر لكل راغب فى التـعليم العـالى الحصول عـليه. ولابد من الموضوعية عند مناقشة هذه القضايا.

• **خامسا**: أضرار الأساليب التنافسية للعـلاقات بين الجامعات أكثر من فـوائدها، حال تقـيـيمـها فى ضـوء القيم التقلـيدية لحرية انتـقال الأفكار والأفـراد، وهناك مثل خاص بالمنافـسة على الطلاب والأسـاتذة والمدراء، وكيف ساهـم فى هجرة (نزيف) العقـول البشرية وتوسعـة الفجوة بين دول الشمـال والجنوب. الأمر الذى زاد الموقف سوءاً. ويـوضح جان كـيرى Jan Currie (الفصل الثـانى عشـر) إلى أى مدى يمكن للأساليب التـنافسيـة والتجارية إحـداث نتائج موضع تسـاؤل، مما يسبب صـعوبات خطيرة للجـامعات التى تسـتخدم مـثل هذه الأساليب، وهناك نجاحـات بارزة كتلك التى حققـتها جامـعة فونكس Phoenix (الفصل الثـالث عشر)، وفى الوقت نفـسه، هناك إخفاقات كثيرة.

وإذا أريد حـقا وقـاية القيم التـقليـدية للتعليـم العالى؛ أى تحـقيق الانتـقال الحـر للأفكار والأفراد، والإسهام فى إنتـاج معرفة عالمية لصالح البشريـة جمعاء، فلابد من رسم خريطة Chart العمل على أساس هذه القيم، أى على أساليب تعاونية، وليست تنافسية.

• **سـادسـا**: كل ذلك يؤدى إلى القضيـة الرئيسة للتعليم العالى واتفـاقيات الجاتز؛ فالتعليم العـالى ليس سلعة تحتاج إلى تنظيم حـسب ميكانيزمات السـوق، شأنه شأن